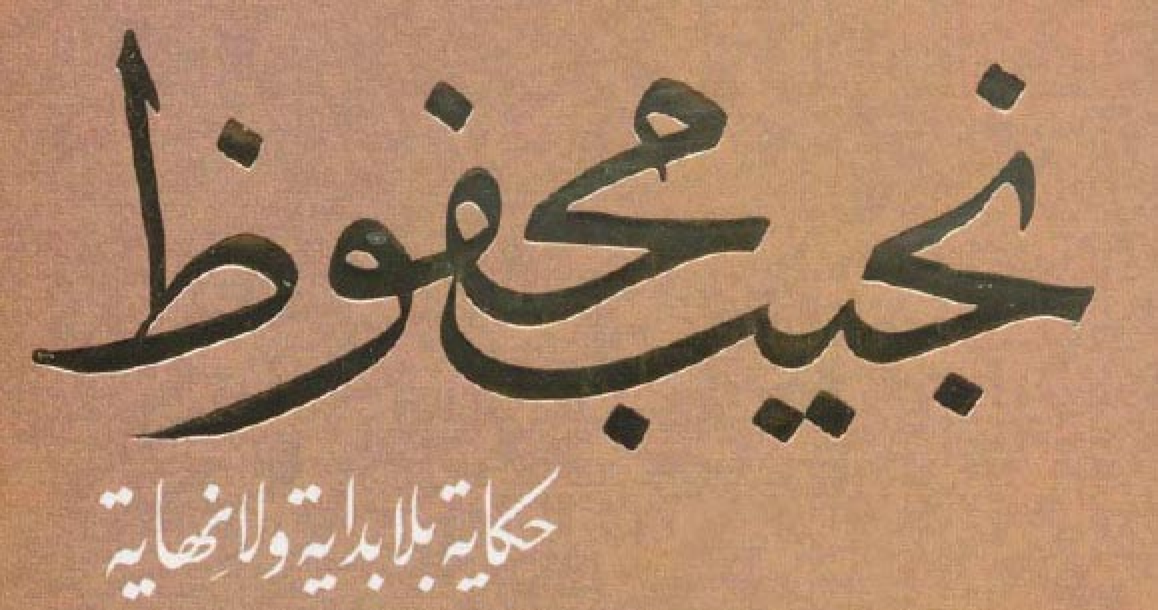
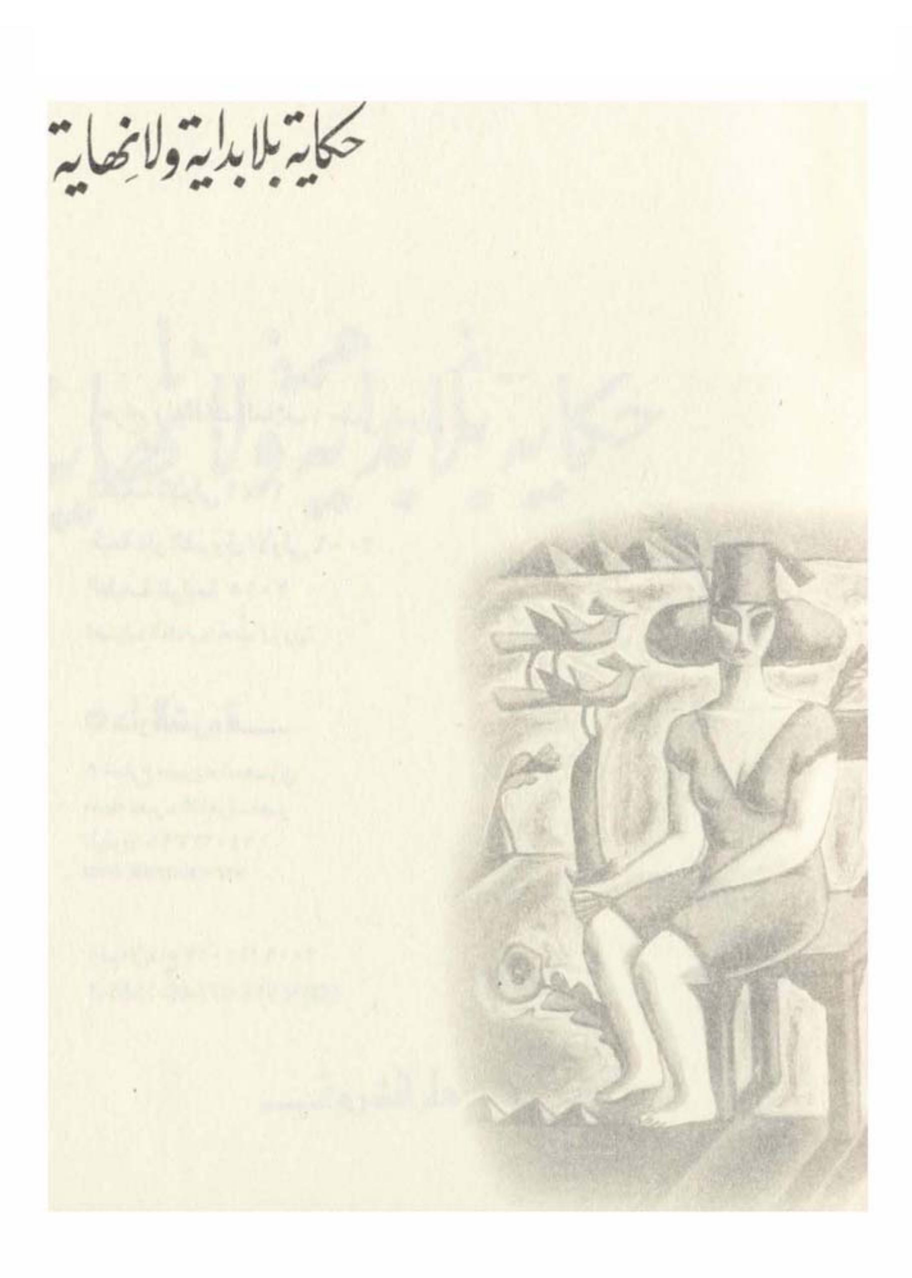


حكاية بلا بداية ولا نهاية

نجيب محفوظ

حكاية بلا بداية ولا نهاية

دار الشروق


حكاية بلا بداية ولا نهاية

حكاية بلا بداية ولا نهاية

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

الطبعـة الأولى ١٩٧١

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعـة الرابعة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٠٠١٧/ ٢٠٠٦
ISBN 978-977-09-1586-8

المحتويـــات

حكاية بلا بداية
ولا نهاية

هتف المنشد فى نغمة بدائية :

«يا سيدى الأكرم على بابك»

فردد المريدون :

«الله . . الله . . الله . . »

تابعت عيناه المشهد من خصاص نافذة ببهو الاستقبال . تابعتا موكب أهل الطريقة وهم ينشدون ويصفقون . على أنغام الناى ودق الدفوف وتحت البيارق ينشدون ، تزاحموا حول الضريح وأمام البيت الكبير حتى امتلأت بهم الحارة . وتسللت إليه فى موقفه وراء النافذة نسائم دافئة من الحديقة مترعة بأخلاط من روائح الفل والياسمين والحناء والقرنفل . لبث بمكانه فى بدلته السوداء الأنيقة مغطى الرأس بعمامة مقلوزة ، ينظر ويصغى باهتمام .

« يا سيدى الأكرم على بابك»

«الله . . الله . . الله»

وارتفع صوت مكتسح النبرة يطالب الجميع بالسكوت فساد الصمت .

وراح يخطب قائلا :

«هنيئا لأهل مصر . هنيئا لمصر . اختارك الأكرم مأوى ومستقرا

لشخصه ولذريته . هنيئا لك يوم قصدك قادما من المشارق . على قدميه جاء . يستأنس وحوش البرارى . يخترق الجبال ، يسير فوق الماء ، يفجر العيون فى الصخر . وهلَّ على القاهرة السعيدة كالبدر ، وتجول فى أطراف متباعدة حتى استقر به المقام فى هذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجده وضريحه . هنيئا يا مصر ، وهنيئا يا حارتنا ، حارة الأكرم وموطن ذريته ومريديه . منذ قرون خلت ، انبثق فى هذا المكان نور ما زال يجذب إليه فراشات من طالبى الهداية والغفران ، وترك لكم المسجد والبيت الكبير . البيت الكبير مركز الروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الأكرمية ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهند وفارس وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس . بيت هو القلب الخفاق لعالم روحى شامل . يا سيدى الأكرم تحية وسلاما . يا من جبت الأقطار كلها واخترت لمقامك هذا القطر ، هذه العاصمة ، هذه الحارة ، هذا البيت . يا صانع الكرامات تحية وسلاما . ولآخر خلفائك وذريتك مولانا محمود الأكرم تحية وسلاما» .

تعالت الهتافات من الأركان ، ثم أنشد المنشد وردد المريدون :

«الله . . الله . . الله»

«يا سيدى الأكرم على بابك»

تحول عن النافذة . بوجه أسمر مستطيل ولحية سوداء قصيرة مدببة . تطلع إلى شيخ فى الستين يقف وسط البهو الكبير تحت نجفة برنزية على هيئة مئذنة . أنعم فيه النظر فتلقى نظرته بخشوع وقال :

ـ تحية وسلاما يا مولانا محمود الأكرم .

فتمتم الرجل باسما :

ـ طاب يومك يا شيخ عمار .

مضى ـ والآخر يتبعه ـ إلى كنبة تركية مفروشة بالسجاد الشيرازى على

مقربة من باب السلاملك. جلس ودعا الشيخ إلى الجلوس. تتابعت نسائم الصيف العطرة متهاوية فى تضاعيف أصيل غابت شمسه وراء أشجار التوت المعششة بالعصافير. قال الشيخ محمود:

ـ من يرى موكبنا لا يتطرق إليه شك فى استقرارنا.

فقال الشيخ عمار بحماس:

ـ ما زالت الدنيا بخير.

هز الرجل رأسه فى أسى متسائلا:

ـ ماذا جرى لحارتنا؟

ـ لا شىء، سحابة صيف، عبث أطفال..

ـ إنك لا تؤمن بما تقول يا شيخ عمار، هل سبق أن نال لسان من الطريقة؟

ـ إنه جيل جديد عجيب يمتطى مركبة الشيطان.

قطب محمود الأكرم قائلا:

ـ يسخرون من الطريقة، ومن المريدين، ومنى شخصيا، ويرسلون النكات فى مقاهى الحارة بكل وقاحة.

ـ وباء هذا الزمن، ماذا جرى لهذا الجيل؟ كيف هانت عليه مقدساته؟! ولكنه عبث أطفال ليس إلا.

ـ ألم يسمعهم المريدون؟

ـ بلى يا مولاى.

ـ ماذا فعلوا؟

ـ نصحوهم بالتى هى أحسن، وركبهم الغضب مرات، ولكن أحدا منهم لم ينس أن الحارة أسرة واحدة.

وقال محمود الأكرم بحدة:

ـ لولا الأكرمية ما كان للحارة شأن..

ـ هو الحق يا مولاى، وقد هيجنى الغضب مرة كدت . .

ولكنه قاطعه قائلا:

ـ لا يليق العنف بأهل الطريق!

ـ ولكن للصبر حدودًا.

ـ أسأل الله ألا تدفعنا الأحداث إلى تجاوز القصد.

رفع بصره إلى الساعة الكبيرة فى الجدار الأوسط ثم تساءل:

ـ متى يجيئون؟

ـ لعلهم فى الطريق إلينا.

ـ ألا يوجد بينهم زعيم أو محرض أو ما شاكل ذلك؟

ـ ليس هناك تنظيم أو زعامة، ولكن ثمة شابا يتسم بوقاحة مركزة يدعى على عويس.

ضيق الشيخ عينيه متفكرا وقال:

ـ على عويس؟! . . إنى أعرف هذا الاسم أو على الأقل بعضه.

ـ إنه ابن المرحوم عويس سواق الكارو.

استقام ظهر الرجل بغتة وتساءل:

ـ شقيق المدرِّسة؟!

ـ شقيق زينب عويس المدرسة.

نظر الشيخ محمود إلى حذائه الأسود صامتا، فقال الشيخ عمار:

ـ لعله ليس من الحكمة أن تفتح المدارس لكل من هب ودب.

فتمتم الشيخ محمود وكأنما يحدث نفسه:

ـ إذن فهو شقيق زينب عويس!

ـ يغادر كل صباح بيتا قديما أعد مدخله قديما موقفا للكارو ليذهب إلى الجامعة! . .

ـ يقال إن شقيقته شقت طريقها بإرادة من حديد .

ـ إنها عانس، مدرسة أطفال، ذات دخل ضئيل . وفى هذه الجحور يترسب الحقد يا مولاى، ويتستر على نفسه السوداء بالسخرية والنكات الجارحة .

ـ ليتك دعوت شابا آخر .

ـ إنه أسلطهم لسانا !

ـ كان أبوه مريدا لأبى، وكان محمود السيرة على رغم ضعته وفقره .

ـ قلت لهم اختاروا من بينكم نخبة لمقابلة مولانا فكان أجرأهم على القبول . رفض البعض، وتردد البعض الآخر . ولكننى أعتقد أنه سيجىء منهم نفر لعلهم أصلبهم .

ـ طليعة الخاطئين . .

تنهد الشيخ عمار قائلا :

ـ لم تعرف حارتنا أمثالهم من قبل . .

ـ هو زمن الغرور والوقاحة .

ـ يخيل إلى أن جامعاتنا معاقل أجنبية !

حدجه الشيخ محمود بنظرة عابسة فتراجع الرجل فى استحياء قائلا :

ـ إلا من هداه الله وحفظه . .

ـ رحم الله أبى .

* * *

ـ لقد جئتك بالمعلمين، ولكنك ترغب فى دخول مدارس الدنيا .

ـ لا بأس من ذلك يا أبى .

ـ كل علم فهو من عند الله .

ـ الحمد لله .

ـ ولكن العبرة بالجهاد وعليه يتوقف الطريق .

ـ سمعا وطاعة يا أبى .

ـ لكى تكون خليفة كما ينبغى لك .

ـ أجل يا أبى .

ـ إن علوم الدنيا لها نهاية أما جهاد الطريق فلا نهاية له .

* * *

ولما خرج من أعماق صمته قال الشيخ عمار :

ـ ليرحم الله أباك .

وطيلة الوقت لم ينقطع إنشاد المنشدين وترديد المريدين ، ولكنه انخفض درجات كأنما يجيء من بعيد . تابعه الشيخ محمود بشيء من الحزن ثم قال :

ـ ياللذكريات ! عرفنا ذات يوم أسماء جذابة كأرشميدس ونيوتن ، وحقائق غريبة كالجزيء والحركة ، ولم أتصور وقتذاك أنها ستطاردنا بعنف كالزمن .

دخل خادم يستأذن للقادمين . . أشار الشيخ محمود للشيخ عمار فقام ليغادر المكان فى أثر الخادم ولكنه أضاء النجفة قبل أن يغيبه الباب . دخلت مجموعة من الشبان ، عشرة بالتمام . دون العشرين سنا ، يرتدون البنطلونات والأقمصة نصف كم ولا تخفى على عين قدم ملابسهم . وقف الشيخ لاستقبالهم فتمت المصافحة بطريقة حديثة لم يتوقعها ولم يألفها . مد يده منتظرا تقبيلها ولكن شدت عليها الأيدى باحترام دون تقبيل . بدأ التعارف فقدم كل نفسه . الجميع طلبة بالجامعة ، بالآداب خاصة ، ما عدا واحدا بالهندسة ، وآخر بالعلوم هو على عويس . تفحصه بنظرة عميقة بقدر ما سمح الموقف الخاطف . لمح قسمات غير غريبة كنغمة قديمة عزفت بعد نسيان ، ونظرة حركت باطنه

بقوة مذهلة، فسرها بالحنق فاستعاذ بالله من الشيطان فى سره ولكنها كانت ألصق بالقلق والحيرة.

قال باسما:

- حللتم أهلا وسهلا . . .

فأجاب أكثر من صوت:

- شكرا ياصاحب الفضيلة.

قلب عينيه فى الوجوه الغالب عليها الشحوب وقال:

- لا تعجبوا لدعوتى إياكم، فهذا البيت مفتوح لجميع أبناء الحارة، وبمعنى آخر هو بيت الجميع . .

فقال أحدهم:

- فرصة طيبة وهبة سعيدة.

لاحظ أن الآخرين جالوا بأبصارهم فى المكان وصاحبهم يتكلم فشعر بحدة التناقض بين رثاثتهم وفخامة الجدران المحلاة بالأبسطة المزركشة والحصر الملونة وزينة الأرابيسك، والسقف الأبيض العالى تتدلى من وسطه النجفة البرنزية ومن أركانه الفوانيس الأندلسية. بدوا كحشرات حادة تغوص فى شِباك البساط الكبير الدسم.

قال الشيخ :

- نحن قوم مهمتنا فى الحياة التواضع لله وحب الناس.

- ما أجمل أن نسمع ذلك!

- وإذا كان الحوار مفيدا بين الناس فى كل حين، فما أوجبه إذا نشب بينهم ما يدعو إلى سوء التفاهم.

صدقوا على قوله بإحناءات من رءوسهم العارية فقال:

- وطريقى أن أدخل الموضوع رأسا، بلا لف ولا دوران ثم أتركه يتفرع كيف شاء بعد ذلك.

استقرت فى أعينهم نظرات استطلاع وتوقع فقال :

ـ بلغنى يا سادة أنكم تخوضون فى كرامتنا وتهزءون بنا؟

فأجاب أحدهم :

ـ لا يخلو الخبر من مغالاة . .

ـ أتنكرون ذلك؟

فأجاب آخر :

ـ لعل مزاحنا علا أكثر مما ينبغى .

قال الشيخ محمود ممتعضا :

ـ لو جاء ذلك من خارج حارتنا ما اكترثنا له ، بل حتى وهو من صميم حارتنا كان يمكن أن ألقاه بالصبر والحلم لولا أن بعض المريدين هموا مرة بالدفاع عن مقدساتهم فآلمنى ذلك جدا ، إذ إننا قوم مهمتنا الأولى فى الحياة هى حب الناس لا الاعتداء عليهم ، وبخاصة إذا كانوا من أبنائنا ، لذلك قررت أن أدعوكم لتتضح لأعيننا المواقف والسبل ، ولنتعاون على تحكيم الحكمة والرشاد فيما بيننا . .

قال صوت :

ـ سلوك حميد خليق بفضيلتكم .

قلب عينيه فى وجوههم مرة أخرى ثم تساءل :

ـ ألا تعرفون ماذا يعنى الأكرم وطريقته لحارتنا؟

ساد الصمت قليلا حتى خرج منه على عويس قائلا :

ـ الحق أن نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليا ، ولكى تعرفنا على حقيقتنا فاعلم يا سيدى أننا طلاب علم ، نحب الحقيقة أكثر من أى شىء فى الوجود ، يؤسفنا أننا أزعجناك .

عاوده القلق لدى سماع صوته ، ولكنه كبح انفعالاته وقال :

ـ نحن لا يزعجنا شيء. حتى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فقال على عويس:

ـ لعله اختلاف فى وجهة النظر.

ـ لم يطالبكم أحد بالدخول فى طريقتنا.

ـ الآراء المتناقضة يا سيدى لا يمكن أن تعيش جنبا إلى جنب فى سلام.

فتساءل الشيخ بحرارة:

ـ ألا تعلمون أنه لولا الأكرم، لولا الأكرمية، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.

فقال عويس بثبات:

ـ الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا.

ـ ولكن الحقائق باقية خالدة.

ـ التغير هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا!

ـ التغير؟!

ـ التغير فى كل يوم، فى كل ساعة، فى كل لحظة...

ـ أراك تتعلق بظاهر كاذب خداع.

ـ معذرة يا سيدى فالظاهر الكاذب هو الجمود...

ابتسم الشيخ مداراة لضيقه وقال:

ـ لا وقت الآن لمناقشة الظاهر والباطن وإلا طال النقاش بنا دهرا. بيد أنه واضح أنكم لا تؤمنون بطريقتنا؟

لم ينبس أحد منهم بكلمة فقال الشيخ:

ـ الصمت جواب، فهل تؤمنون بطريقة أخرى؟

فأجاب أحدهم :

ـ لنا فى الحياة سبيل آخر غير الطرق!

ـ إجابة مفجعة، ترى ماذا تأخذون على طريقتنا؟

فسأله على عويس :

ـ هل يتسع يا سيدى صدرك لصراحتنا؟

ـ إنه أوسع مما تتصور .

فقال أحدهم .

ـ الحياة فى حارتنا معاناة أليمة . .

وقال آخر :

ـ إنها صحراء مخيفة مليئة بالأكاذيب .

وقال على عويس :

ـ صغار المريدين، وهم الكثرة الغالبة، حفاة خانعون . . .

فقال الشيخ بعجلة :

ـ إنهم راضون، والرضا مطلب روحى مضنون به على غير أهله . .

ـ لا يملكون حيال قوتكم إلا الرضا وإلا ماتوا جوعا، ولكن لا شك فى أنهم يمرون حيارى بهذا البيت الكبير الغارق فى الرفاهية . .

قال الشيخ بحدة لأول مرة :

ـ بيت آبائى وأجدادى مذ أقامه القطب الأول .

فقال الشاب بجرأة جنونية :

ـ أقيم بأموال المريدين كسائر العمارات الشاهقة فى وسط المدينة . .

قام الشيخ محافظا على هدوئه ما أمكن . تقدم خطوات مستقبلا باب البهو المفضى إلى الحديقة كأنما ليرطب انفعالاته . تمتم دون أن يلتفت إليهم :

ـ قاتل الله الحقد والحسد .

فقال الشاب ثملا باستهتاره :

ـ إنهما وقود الحق إذا اختل الميزان .

فقال الشيخ بازدراء :

ـ وقودنا الحب وحده .

ـ ذلك يا سيدى أنك لم تذق عض الجوع ولا ضراوة الكدح ولا رهبة القوة الغشوم . .

وتحول الشيخ إليهم بنظره وهو يقول :

ـ إذن فهذه هى المسألة !

ـ المسألة ؟ !

ـ إنكم تريدون نقودا ؟ !

ـ بمعنى ما ولكننا لا نريد رشوة . .

ـ ماذا تريدون ؟ . . صارحونى كما وعدتم .

أجاب أحدهم .

ـ ليس فى عقولنا مطالب أوضح مما نطقت به شكاوانا . . .

وقال آخر :

ـ يريحنا أحيانا أن نطالب بنقيض ما هو قائم !

فعبس الشيخ قائلا :

ـ لا يخلو كلامكم من خدر هو التمويه نفسه . حسن ، إنى أشم رائحة فوضوية !

فقال على عويس :

ـ لا تهمنا الأسماء ، وفى الوقت نفسه فهى لن تخيفنا . . .

ـ لعلكم تحلمون بالقتل ؟

ـ القتل؟!

ـ بدأتم بالسخرية وستنتهون بالدم . .

ـ أحلامنا تحوم حول هدف واحد هو التقدم . .

ـ يا فتى، إنى جامعى مثلكم!

ـ نعرف ذلك يا سيدى .

فعاد إلى مجلسه وهو يقول :

ـ فلنتحدث كزملاء .

ـ هذا شرف كبير لنا يا سيدى .

فابتسم مستردا بذلك هدوءه وقال :

ـ إنكم شباب فى مقتبل العمر، أمامكم فرص لا تحصى للتعلم من الكتب والحياة والزمن، فأى خطإ تعثرون به قابل للإصلاح؛ لذلك لا يزعجنى كثيرا أنكم لا تؤمنون بشىء . . .

ـ لا نؤمن بشىء؟!

ـ أتؤمنون بشىء؟

ـ إن من يعمل فلابد أن يؤمن . . .

ـ كثيرون يعملون كالآلات .

ـ ولكننا نعمل بحماس صادق .

ـ فلعله الطموح؟

هز على عويس رأسه هزة غير القانع ثم تساءل :

ـ ألا يستحق العلم أن نؤمن به يا مولاى؟

ـ إنه معرفة باهرة، وهو من أحب القراءات إلى نفسى .

ـ وما رأيك فيه؟

ـ إنه باب من أبواب العبادة .

ـ وقوته على السيطرة والتغيير؟

ـ خير كثير وشر كثير.

ـ هو خير خالص، أما الشر فيجيء من أوضاع إنسانية معوجة..

ـ فما الذى يوجه الإنسان نحو الخير؟

ـ وعى حكيم فى مجتمع سليم.

قال الشيخ بنبرة راسخة قوية:

ـ لا إيمان حقيقى إلا بالله ولا خير حقيقى إلا بالله وفى سبيل الله.

وساد صمت فترامى من الحديقة نقيق، وخشخشة أوراق، على حين ارتفعت من الحارة ضجة عابثة ضاحكة. جعل الشيخ ينقل عينيه بينهم. لم يستطع تجنب النظر إلى عويس. وقال:

ـ لعلكم تؤمنون بالإنسان، هكذا يقال كثيرا فى هذه الأيام، ولكن ما قيمة الإيمان بالإنسان بغير الإيمان بالبطولة؟

أجاب أحدهم:

ـ لا قيمة لشىء بغير البطولة.

ـ أى ضمان للبطولة ـ وهى تضحية بالنفس والمال ـ بغير إيمان كامل بالله؟!

ـ من المؤمنين من لا بطولة لهم والعكس صحيح!

ـ على أى أساس تقوم بطولاتهم؟

ـ إيمانهم بأنفسهم وبعالمهم!

ـ غير كاف وحده.

ـ التربية الرشيدة.

ـ ولا هذه.

فقال آخر:

ـ قد نستعين فى ذلك بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!

ابتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بامتعاض:

ـ حبوب للتضحية.. حبوب للشجاعة... حبوب للأمانة... ما شاء الله!

فقال على عويس منفعلا:

ـ لا تسخر منا يا سيدى، إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد. لقد ضقنا بكل شىء ونريد لكل شىء أن يتغير، وقد ورثنا هذا العالم عن آباء وأجداد ظُنت بهم الحكمة يوما ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم...

فتمتم الشيخ ممتعضا.

ـ أسفى على الآباء والأجداد.

ـ نحن أجدر بالرثاء منهم.

تفكر الرجل قليلا ثم قال:

ـ الآن عرفت لم تسخرون من الطريقة وأهلها...

فقال أحدهم:

ـ إنك يا مولانا رجل مثقف، وليس جمعك بين البدلة والعمامة عبثا، وإن خيراً كثيرا يرجى منك لحارتنا...

ـ ترى ماذا يرجى منى؟

ـ لا شىء يخفى على فطنتك..

ـ أعطنى مثالا يا بنى...

فقال على عويس:

ـ أن تمزق ستار الأكاذيب الذى يغشى حارتنا.

ـ الأكاذيب؟!

ـ كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعلية للتسلط واقتناء العمارات الشاهقة!

وقال آخر:

ـ والكف عن التغنى بالخرافات.

ـ الخرافات؟!

فقال على عويس:

ـ معذرة عن صراحتنا ولكننا بتنا نكره الكذب حتى الموت.

ـ زيدونى صراحة!

ـ نحن مقتنعون بأن شيئًا لا يخفى عن فطنتكم..

أعقب ذلك صمت ثقيل.. طال الصمت فلم يجرؤ أحدهم على خرقه.. وبذل الشيخ جهداً جبارا ليخفى انفعالاته. ونهض باسما. قال:

ـ ها قد تم التعارف بيننا، وذاك من فضل الحوار كما قلت فى بدء الاجتماع..

فقال أحدهم:

ـ نرجو أن تغفر لنا صراحتنا.

فقال الرجل بهدوء:

ـ ليغفر لنا الله جميعا.

صافحهم واحدا واحدا. غادروا البهو. ولما خلا المكان اكفهر وجهه. وروّح عن انفعاله بالحركة ذهابا وجيئة. لم ينتبه إلى عودة الشيخ عمار حتى مثل الرجل بين يديه. وضع يده على كتفه وهو يقول:

ـ كما أخبرتنى وأكثر.

تمتم الرجل:

- أبالسة يا مولاى .

- يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قيمنا . .

- وهم يتكاثرون وتتسلل زندقتهم إلى النفوس الضعيفة .

- وابن سواق الكارو صاروخ مدمر .

- قلت إنه أسلطهم لسانا .

- بل هو شر من ذلك . . .

- والعمل يا مولاى؟

ابتسم الشيخ محمود قائلا :

- نحن قوم الحب غايتهم الأولى والأخيرة .

فابتسم الشيخ عمار بدوره قائلا :

- الآن عرفت سبيلى يا مولاى . .

- ليكن الله فى عونك .

- سأفعل ما يمليه الحب علىَّ، حبنا لمقدساتنا . وحبنا للمريدين الأبرياء!

وتبادلا نظرة طويلة .

٢

جلس على الديوان تحت النجفة يرنو إلى الحديقة بعينين نصف مغمضتين . إلى جانبه استكنت العمامة فبدا شعره الأسود غزيرا مفروقا بعناية لم يتطرق إليه أثر الشيب . ومن الحارة ترامت نداءات باعة الصباح مترنمة . وفى الحديقة تألقت أوراق التوت والحناء والأعناب تحت دفقات

حارة من أشعة الشمس . استغرق فى تأملات حتى انتبه على حفيف ثوب . نظر نحو جارية سوداء طاعنة فى السن جدت فى البحث عنه بعينين عمشاوين . . ناداها برقة :

- أم هانى . .

اتجه وجهها النحيل الضامر نحو الصوت ثم همست :

- امرأة تريد مقابلتك .

جاءت امرأة فى أواسط العمر ، صافية السمرة ، تعكس عيناها السوداوان نظرة جادة متجهمة تستقر فى أعماقها كآبة ثابتة . لبس العمامة ووقف فى دهشة أوشكت أن تكون انزعاجا لولا نجاحه فى ضبط مشاعره . قال :

- زينب ! . . أهلا . . تفضلى .

مد لها يده فصافحته بعد تردد ودون أن يند عن وجهها أى تعبير إنسانى .

- كيف حالك ؟ . . أهلا أهلا ، تفضلى بالجلوس .

جلست على مقعد قريب من الديوان . ظل واقفا وهو ينعم فيها النظر ثم قال :

- لم أرك منذ عمر طويل ، عمر طويل حقا ، ولكنى تابعت نجاحك بإعجاب . .

قالت بلهجة قاطعة فى التركيز على الهدف الذى جاءت من أجله :

- أرجع إلىّ أخى !

حدق فيها متسائلا وقال :

- ماذا عن أخيك ؟ لقد اجتمعت به مع بعض زملائه فى هذا المكان منذ أيام قلائل . .

لازمت الصمت كأنها لم تسمع شيئا، فواصل حديثه:

ـ دعوتهم بعد أن بلغنى عنهم ما بلغنى، لا شك فى أنك سمعت بما يقال. وتناقشنا طويلا، والتزمت فى حديثى معهم بالرفق والسماحة وسعة الصدر، ولم أضن عليهم بالنصح الرشيد..

فقالت من دون أدنى تأثر بكلامه:

ـ أرجعه إلىّ من فضلك!

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تعرف ما أعنيه تماما..

ـ صدقينى..

فقاطعته بهدوئها الميت:

ـ لقد ألقى القبض على الجميع فجر اليوم..

ـ علمت بذلك الساعة فقط ولكنى لم أفهم معنى لقولك بعد..

فقالت دون مبالاة بأقواله:

ـ لذلك أكرهت نفسى على هذه الزيارة.

ـ الحق أننى نسيت لدى رؤيتك كل شىء.

ـ إن الأخطاء ينسى بعضها بعضا..

فقال محتجا:

ـ يا للعجب، إنك تسيئين بى الظن!

ـ نعم..

ـ مغالاة جاوزت كل حد.

ـ أرجع إلىَّ أخى.

ـ أى تهمة وجهت إليهم؟

ـ يقينى أنهم أبرياء.

ـ إذا كان بريئا فسوف يرجع إليك دون شفاعة .

ـ لست أطلب شفاعتك ، ولكنى أطالبك بإصلاح خطئك .

قطب قائلا :

ـ اقتلعى هذا الوهم من رأسك .

ـ ليس وهما ما أعتقد ، إنك أكبر من أى وهم !

ـ سامحك الله .

ـ إنه يسامح الولايا والضعفاء والمخدوعين والمغلوبين على أمرهم ، ولكنه لا يسامح الأشرار والمنافقين .

ـ صدقينى . .

فقاطعته :

ـ لا أستطيع أن أصدقك .

ـ لا دخل لى فيما حصل لأخيك .

ـ أنت أبلغت عنه أو أحد رجالك بإيعاز منك .

هز رأسه هزة المتسامح وقال :

ـ لم يكن بحاجة إلى من يشى به ، ارتفعت أصواتهم فى كل مكان ، ودوت ضحكاتهم بالآراء الهدامة . .

ـ ليس فيما قالوا جريمة ، ولكن انقلب الحال بعد مجيئهم لمقابلتك . .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أحلام شباب لا تؤذى أحدا من الأبرياء ، ولكن مادت الأرض عندما تطرق الحديث إلى شخصك . . .

ـ كلا ، ولكنهم لا يؤمنون بالله ، لا يؤمنون بشىء .

ـ أتؤمن بالله أنت ؟

ـ أيتها الجارة . . اتقى الله . .

ـ ماذا لديك من درجات الإيمان التى تحفظها عن ظهر قلب؟!

ـ لا تحكمى على رجل لم تريه منذ عمر طويل.

ـ كثيرون ـ حتى من مريديك ـ يعرفونك على حقيقتك . .

ـ لا تعرضى بقوم يدينون لى بالولاية.

ـ إنهم يطيعون نداء المصالح.

ـ ليسعك حلمى إلى ما لا نهاية.

ـ لم يغضبك كفره المزعوم ولكن أغضبك رأيه فى عماراتك الشاهقة فى وسط المدينة . .

ـ ليغفر الله لك سوء ظنك . . .

فعادت تقول بهدوئها الميت:

ـ أرجع إلىَّ أخى . .

ـ يتعذر علىَّ التدخل فى مثل تلك الأحوال.

ـ ما دام فى قدرتك أن ترسله إلى السجن فلن يتعذر عليك إخراجه.

جلس الشيخ على الديوان. ابتسم ابتسامة من يأسى على نفسه. قال معاتبا:

ـ ليغفر الله لك.

ثم واصل حديثه:

ـ أعتقد أن الإجراءات التى اتخذت معهم لا تعدو أن تكون نوعا من الزجر ليس إلا، ومن أجل خاطرك سأبذل سعيا حميدا ولكنى لست واثقا من النتيجة. أرجو أن تعدلى عن سوء ظنك بى، إن اتهامك فوق احتمالى، ولا يليق بمركزى سواء فى الطريقة أو فى الحارة، ولقد حرمت على أتباعى حق الدفاع عن مقدساتهم إيثاراً للحب والسلام.

- إنى عاجزة عن تصديقك، لدىَّ من الأسباب ما يحملنى على إساءة الظن بك دائما وإلى الأبد، ولكنى ما كنت أتصور أنك ستلاحقنى بالأذى جيلا بعد جيل!

- إنى برىء مما ترميننى به.

- إنى أصدق قلبى وهو خير دليل.

- صدقينى.

- كلا، ولكن أرجع إلىَّ أخى.

- وعدت بالسعى.

- سيعرف أهل المقبوض عليهم الرجل المسئول عن ذلك آجلا أو عاجلا.

فقال بحدة:

- جيل شرير من الأبالسة، أوغروا الصدور بضلالهم ولا أحد من العقلاء يضمر لهم أى عطف.

- إنهم أفضل مما تظن.

- أهذا رأيك؟

- يودون الخير من أعماق قلوبهم.

- هل حدثك أخوك عن آرائهم؟

- أعرف أحلامهم.

- يا لخيبة الأمل، كدت أطالبك بالمعاونة على تهذيبه.

- لقد أحسنت تربيته.

- إذن كيف نشأ على الحقد والحسد والتعلق بأتفه ما فى الحياة؟!

- أتفه ما فى الحياة؟!

- زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات.

تنهدت زينب وقالت :

ـ يا لك من رجل تفوق جرأته الخيال!

فرَّق بينهما صمت . أراح رأسه بالنظر إلى الحديقة . تلقى دفقة من انفعالات طارئة . وكأنما يخاطب نفسه :

ـ يا للذكرى ، ها هى ذى نفحة من الماضى تهب كأنما تهب من بستان ، حاملة عرف عرق خاص ، لعله عرق الإبطين ، ناشرة صورا مطوية فى قلب الزمن ، تثير الحنين بقدر ما تثير الشجن .

ـ ماذا تعنى؟

عاد يحدق فيها ثم قال :

ـ ما زلت جميلة كما كنت . .

فهتفت بحدة :

ـ يا لك من رجل مريض!

ـ ليكن لسانك نفحة من ذكريات لا نصلا للطعن والقتل .

ـ كأنك إبليس بلحمه ودمه .

فقال باسما فى غموض :

ـ هيهات أن تعرفى عذابات رجال الطريق .

ـ ولكنى أعرف المنافقين . .

فقال متوغلا فى الانفعالات الطارئة :

ـ القلب نبع يفيض بمنصهر المعادن النفيسة والخبيثة . والسرور توءم الحزن .

ـ إنك تهذى . .

ولكنه باخ . أفاق تماما . تراخت شفتاه امتعاضا . قال بفتور :

ـ أرجو ألا يخيب مسعاى فى إرجاع الجميع إلى بيوتهم .

ـ أرجو ألا أضطر إلى المجيء مرة أخرى .

ـ بوسعك أن تفعلى شيئا لتجنيب حارتنا ويلات نزاع يوشك أن ينقلب داميا .

ـ بوسعك أنت أن تفعل هذا خيرا منى .

تساءل عابسا :

ـ أتجرين مجراهم؟! أتطمعين أنت أيضا فى مالى الحلال وولايتى المستمدة من كرامات جدى الأكرم؟!

ـ إنى أصغر شأنا من أن أنبهك إلى ما ينبغى لك .

ـ بفضل طريقتنا يؤمن أحقر رجل فى حارتنا بأنه أصل الوجود وغايته!

فقامت وهى تقول :

ـ هل أغنانا ذلك عن تعاستنا شيئا؟!

فقام أيضًا وهو يقول محتدا :

ـ إنك على وشك الزيغ يا زينب .

ـ إنى منتظرة وعدك .

ـ كان أبوك مريدا صادقا .

ـ رحمه الله .

ـ مات سعيدا كما يجدر بمؤمن .

ـ ولكنه عاش عيشة مريرة!

ـ أهم ما فى الحياة هو الموت!

مضت نحو الباب وهو تقول :

ـ إنى منتظرة وعدك . .



ـ فى هـذا البيـت المقـدس! وفى هــذه الحـجــرة المبـاركــة، عليك لعنة الله.

* * *

هَمَّ بقول شيء قبل أن تختفى ولكنه أطبق فاه، ثم ذهب إلى النافذة فأزاح الستارة وألقى نظرة يتابع مسيرها..

٣

دخل بهو الاستقبال فرأى الشيخ عمار فى انتظاره. صافحه دون أن يخفى دهشته وهو يتساءل:

ـ خــيــر.. مـا جــاء بك فى هذه الســاعــة وقـد أوشك الليل أن ينتصف؟

فأجابه الرجل وهو يغض البصر:

ـ لا غرابة أن نوجد فى هذا البيت فى أى ساعة من نهار أو ليل..

ـ جواب حسن.

جلسا والشيخ يمسح وجهه بمنديله ويقول:

ـ فى الخارج عاصفة ترابية أخشى أن تدفن الحارة دفنا، فى هذا الجو يضيق الإنسان بالحياة وتضيق الحياة بالإنسان، وعجيب أن نكون من تراب ونجزع هذا الجزع للفحة منه. وفى كل خطوة يصادفك شاب من أولئك الشبان، لقد بذلنا لهم مسعى طيبا ولكنهم لا يبدون شاكرين، كلا، إنهم أبعد ما يكون عن الشكر، وما أجدر اللئام بأن يظنوا الاستجابة الطيبة ضعفا. وذاك الشاب المتهور حدجنى اليوم بنظرة متحدية، وقديما قيل: اتق شر من أحسنت

إليه! اللعنة! لم تعد الحارة بالحارة التى أولتنا الإمامة ولا الزمان بالزمان الذى طاب لنا! أكنت تنتظرنى يا شيخ عمار؟

غمغم الرجل:

- نعم يا مولاى . . .

- ماذا أرى؟! . . إن وراء نظرة عينيك أنباء لا تعد بخير؟ . .

- حفظك الله من كل سوء يا مولاى.

- ماذا حدث؟ هل وقع انقلاب خطير فى نظام الكواكب؟!

- الدنيا بخير، ولن ينال من كمالها عبث الأبالسة . . .

تساءل الشيخ بضيق:

- ماذا وراءك يا رجل؟

- نحن قوم خلقنا الله لنواجه الشدائد بقلوب أشد منها.

فقال بجزع:

- هات ما عندك، كلما استفحلت المصيبة كان الإيجاز أليق بها!

فقال الشيخ عمار بعناد:

- ليس من الوفاء أن نخفى عنك أمرا باتت تلوكه ألسنة الكثيرين.

قال بنبرة غاضبة:

- تكلم.

- ثمة نشرة مطبوعة كتبت بمداد حقد أسود.

- نشرة مطبوعة؟

- نعم.

- للتشهير بنا؟

- ما يشهرون إلا بأنفسهم.

وأخرج من جيب جلبابه نشرة على هيئة كتاب بغير غلاف مطبوعة

بالرونيو، وسلمها إليه مطرقا. تلقاها الشيخ متجهما، تفحص صفحتها الأولى، فرَّها بسرعة، ثم عاد إلى صفحتها الأولى.

- ياله من عنوان غريب: «ماذا يُعرف عن الأكرمية»، ولكن منذا الذى لا يعرف كل شىء عن الأكرمية؟!

نظر فى عينى الرجل متظاهرا بالاستهانة ثم سأله:

- أقرأتها؟

- نعم يا مولاى.

- مهاترات؟!

- نفثات شيطان رجيم.

- هل وزعت على نطاق واسع؟

- على جميع من يعرفون القراءة فى حارتنا.

- متى حدث ذلك؟

- لم أدر بها إلا اليوم.

- لقد تم الإفراج عن الأبالسة منذ عشرة أيام.

أطرق الشيخ عمار صامتا فتساءل الشيخ محمود ساخرا:

- هل يحرمنا ما جاء بها من الحياة أو يصد الحياة عنا؟!

- معاذ الله يا مولاى.

- نحن نعرف أعداءنا كما نعرف أصدقاءنا.

ومضى يقرأ بسرعة وهو صامت وتند عنه كلمات من آن لآن.

- توجد مقدمة، ما شاء الله، كما يليق بالكتب العلمية، ماذا تقول المقدمة؟... «الحقيقة هى الحقيقة، لا تحتاج إلى أسباب تبرر نشرها على الناس، علينا أن نتقبلها دون تحريف وبشجاعة تليق بالبشر وإن تغير أسلوب حياتنا ليتوافق معها. فنحن لا ننشرها بقصد الإساءة

إلى أحد، ولكن إيثارا للحق ونشدانا للخير». ما شاء الله، أى حقيقة يا أوغاد؟ أبواب ثلاثة؟ أى أبواب أيها اللئام؟ الباب الأول عن «البيت الكبير»، والثانى عن «الأكرم صاحب الطريقة الأول»، والثالث عن «السلوك فى الأسرة الأكرمية»، ما شاء الله.. ما شاء الله..

وراح يقرأ مستغرقا صامتا والرجل يراقبه بإشفاق. وعلى حين بغتة هتف:

- اللعنة.. الجحيم..

ورجع إلى الأسطر وقتا آخر ثم صاح بحنق:

- الحمقى يتناسون أن الآلات الحادة قادرة على تحطيم الجماجم الخاوية إلا من ظلمات الكفر..

وواصل القراءة بوجه مكفهر وشفتين قلقتين حتى هتف:

- أشهد الله أنى قوة إذا شاءت اقتلعت أعداءها الجبناء من جذورهم المغروسة فى الطين..

وانكب على النشرة بنظرات مفترسة وأسارير تنضح بالعنف حتى قال بصوت متحشرج:

- إذن فلتتوقف الأرض عن الدوران أو فلتدر فى عكس اتجاهها..

رمى بالنشرة أرضا. انتتر واقفا. وعلى رغم غضبه الأحمر بدا منهار القوى مهدم البنيان. هرول إلى مدخل الحديقة. ضرب الأرض بقدمه. ثم رجع إلى موقفه مسددا بصره إلى الشيخ عمار الذى وقف بدوره تأدبا، وقال:

- أى وقاحة، أى جنون، أى تجديف، أى دعارة؟!

وكور قبضته ثم استرسل:

- الهذيان لغة دارجة، درجة الحرارة الطبيعية هى درجة الموت،

التاريخ قتل غيلة، المسك سم زعاف، الأضرحة الطاهرة متاحف حشرات محنطة، لا أنت أنت ولا أنا أنا ولا تعجب للدواب إذا زحفت علينا لتعلمنا كيف يكون السلوك فى هذه الحياة اللعينة!

قال الشيخ عمار بإشفاق:

- نحن فى موقف يقتضينا أقصى ما نملك من حكمة.

- والجنون لماذا خلق إذن؟

- مولاى، علينا بالحكمة التى نبشر بها وإلا أفلت منا الزمام.

- أيها العجوز، لقد كنت الذى يحرضنى وكنت الذى يحذرك.

- هذا موقف جديد لم يسبق لنا مواجهته من قبل.

فلوح بيده وهو يصيح:

- الويل له... الويل لهم...

نحن لا نعرف المجرم إلا..

- إلا؟

- إلا بالظن..

- لا تغالط ضميرك.

- عيون رجالنا فى كل مكان فلننتظر.

- سواد الكتاب برهان قاطع على مداد الحقد الذى استمد منه!

- الحكمة... الحكمة...

- وندعه يقوم بيننا ساخرا مجدفا؟!

- لنتلق الضربة بعقل ولندبر بعقل آخر.

- لو تفشت هذه الأكاذيب لقضت علينا.

- الأكاذيب لا تقضى على إنسان ولكن قد يقضى الإنسان على نفسه..

صاح بغضب :

ـ أكافح أنا أمواج الغرق العاتية على حين تجلس أنت على بر السلامة تتغنى بالأقوال الحكيمة؟!

ـ أضرع إليك باسم صاحب الضريح ألا تقدم على خطوة إلا بعد امتحان وتدبر وتفكر .

ـ لقد أذهلتك الضربة .

فقال عمار بهدوء :

ـ سنضرب ضربتنا ، ولكن علينا أولا أن ندرأ عنا الشبهات .

ـ وكيف يتأتى لى أن أمشى فى الحارة مرفوع الرأس بعد اليوم؟!

ـ المؤمنون بنا أضعاف الكافرين .

ـ ولكن الكافرين أقوى على الشر .

ـ لم يئن أوان المعركة بعد ، علينا ألا ننفرد برأى ، وعلينا أن نرد على النشرة بالعلم واليقين فلن يبدد العراك ظلماتها .

فقال الشيخ متأوها :

ـ إجراءات من طبيعتها أن تطول أكثر من ليلتى الحالكة!

فقال الرجل بدهاء :

ـ المعركة قبل جلاء الحق اعتداء ، ومن شأن الاعتداء الغاشم أن يكسبهم عطفا لا يستحقونه ، وسوف يشجعهم ذلك على مقابلة الاعتداء بمثله وهم عدد لا يستهان به ، ورجالنا ورجالهم فى النهاية ينتمون إلى هذه الحارة التى كتب عليها العناء . .

فتساءل فى جزع :

ـ متى وكيف نبدأ؟

فأجاب الرجل بعد تردد :

ـ هنالك رجل لا غنى عنه فى هذا المأزق .

قطب الشيخ متمتما :

ـ الشيخ تغلب الصناديقى؟

ـ نعم .

فقال ممتعضا :

ـ لقد هجرنا منذ عهد بعيد، ورأيه فينا غير خاف على أحد!

ـ أعلم ذلك يا مولاى ولكنه ما زال إماما من أئمة الطريقة ولن يتردد في الدفاع عنها بعلمه الغزير .

تنهد ثم قال :

ـ عليك بإقناعه بالمجىء إلىّ . . .

ـ سأذهب إليه مع الصباح الباكر .

ـ اذهب إليه فى الحال . .

ـ مولاى . . . لقد انتصف الليل .

ـ اذهب إليه فى الحال، وإن بدا منه اعتراض فذكره بأبى إمامه وصديقه .

أحنى الرجل رأسه ومضى والآخر يقول :

ـ قل له إن رياحا مليئة بالأوبئة انقضت على الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدسة .

٤

لاح فى مدخل البهو . تقدم متوكئا على عصاه بعد أن أوصله الشيخ عمار ثم ذهب، فى جلباب أبيض بسيط ناصع البياض، تطوق وجهه الضامر الوضىء لحية بيضاء مسترسلة حتى منتصف الصدر . وعلى رغم

طعونه فى العمر تألقت عيناه بحيوية جذابة ونشاط روحى أضفى على أساريره جمالا يجمع بين النضارة والعتاقة اختصت به الشيخوخة المستكنة فى أحضان البراءة والتقوى. هرع الشيخ محمود إليه فصافحه بحرارة وهو يدارى حرجه بابتسامة، ثم مضى به إلى الديوان فأجلسه وجلس إلى جانبه. أرتج عليه القول لحظات ثم قال:

- حللت أهلا وسهلا فى بيتك بعد غيبة طويلة!

فقال الشيخ تغلب ببساطة:

- كتبت علينا التلبية عند النداء.

لم يرتح الشيخ محمود للإجابة تماما ولكنه قال:

- أعترف بأن غيبتك إنما ترجع إلى تقصيرنا.

فقال الرجل بصراحة:

- هذا حق!

ابتسم الشيخ على رغم غمه وكمده وقال:

- كأنك أصغر منى سنا، إنك رجل سعيد، إننى أغبطك!

- خفف الله عنك.

- دعنى أشكر لك تفضلك بالمجىء فى هذه الساعة من الليل.

فقال الشيخ تغلب بنفس البساطة والصراحة:

- كنت من دعوتك لى على انتظار!

صدمه قوله. آذى مشاعره. ولكنه تساءل:

- حقا؟!

- نعم.

- لعل النشرة بلغتك؟

- نعم.

فقال بكآبة جديدة :

ـ لا أجد لها أثرا فى وجهك الكريم!

ـ أى أثر توقعت؟

ـ الأثر المنشود لدى إمام من أهل الطريقة .

فارتفع صوت تغلب الصناديقى وهو يقول :

ـ لم يعد للطريقة أهل!

فانقبض قلب الشيخ محمود وقال :

ـ الوقت غير مناسب لإثارة الخلافات القديمة .

فقال العجوز بحدة :

ـ لم يبق من الطريقة إلا الأغانى والأذكار والنذور والعمارات!

ـ بقى الإيمان وهو كفيل بتجديد الحياة فى أى لحظة .

ـ ليست الولاية أن ترث العرش ولا أن تقرأ كتب الأقدمين والمحدثين، ولكنها طريق طويل شاق لا يقدر عليه إلا أهل الإيمان الحق .

* * *

ـ تزوج، وابدأ الطريق، وإلا فاتك قطار الرحمة إلى الأبد . .

* * *

ـ لم نتخل عن الإيمان ساعة، وهو يتبعنا كظل من العذاب، ولكننا وقعنا فى أحابيل زمان عجيب .

ـ أى زمان يمنع الرجل الصالح من التطلع إلى الأفق الأبدى؟!

تنهد الشيخ محمود قائلا :

ـ ليتنا ننسى خلافاتنا فى هذه الليلة المكشرة عن أنياب الشر .

ـ أنسيت أننى لم أرك مذ كنت شابا وها أنت ذا تناهز الأربعين؟

ـ قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب .

ـ ذلك أنى أضن بوقتى على غير الاجتهاد .

ـ لا يجوز أن تتقطع الأسباب بيننا . .

ـ رحم الله أباك . . أما أنت فلم تذكرنى إلا حين هبت الأعاصير على مجدك !

فامتعض الشيخ محمود وقال مصححا :

ـ بل على الطريقة يا شيخ تغلب . .

ـ الطريقة؟ ! لقد تقوضت على يديك .

ـ لن أناقشك ولكنى أطالبك بواجب الدفاع عنها .

ثم بتوكيد :

ـ إنك رجل القلم، مؤلف أشعار الأكرمية وفلسفتها والعالم بأسرارها وأول من يحق له الدفاع عنها .

ـ أقرأت النشرة؟

ـ قرأت نفثات الأبالسة المدسوسة فيها .

هز العجوز رأسه وقال :

ـ تريد أن أرد عليها؟

ـ هذا ما أطالبك به . .

ـ لا رد عندى عليها !

ـ ماذا؟ !

ندت عن الشيخ محمود صيحة توجع وقطب غاضبا ولكن الآخر قال بهدوء :

ـ ليس عندى ما أرد به عليها .

ـ ماذا تعنى يا شيخ تغلب؟

ـ أعنى ما قلت حرفيا .

ـ أتعنى أن ما جاء بها حق ؟!

ـ أجل يا مولاى .

ضحك ضحكة جافة باردة وحملق فى وجه العجوز بذهول :

ـ إنك لا تعنى ما تقول . . .

ـ قلت إننى أعنيه حرفيا .

ضرب يدا بيد وصاح :

ـ إلى بعقل جديد لأقترب من هذه الأحاجى !

ـ يلزمك عقل جديد حقا . .

ـ عما قليل سيعتلى الجنون عرش الطبيعة !

ـ لم يجدّ جديد يدعو إلى ذلك . .

ـ لقد اختلقوا الأكاذيب بغية القضاء علينا .

ـ لم يختلقوا أكاذيب ، ولكنهم عرفوا السبيل إلى مخطوطات قديمة بدار الكتب . .

ـ زيفها ولا شك أعداء الأكرمية؟

ـ بل وضعها مريدون من أصدق المريدين القدامى .

ـ مريدون صادقون؟! . . أنت تقول ذلك؟

ـ نعم . .

ـ أكنت على علم بها من قبل؟

ـ نعم ، ولكنى تكتمتها لاعتقادى بأنه قد يساء فهمها .

ـ لا أصدق أنهم كانوا مريدين صادقين .

فقال الرجل بنبرة تنم على الاحترام :

- كانوا ثلاثة، الشيخ أبو كبير أولهم وقد عكف على دراسة بيوت الأكرمية، والشيخ الدرملى ثانيهم، وكان حجة فى معرفة رجال الكرمية، والشيخ أبو العلاء ثالثهم وقد ولع بتأريخ أهواء القلوب.

فصاح الشيخ محمود:

- أوغاد كذابون!

- بل مريدون صادقون. كان الأولان تلميذين للقطب الأكبر عبدالله الأكرم، أما الثالث فكان مريدا لوالدك رحم الله الجميع...

- لن أصدق أن الشمس تشرق من المغرب ولو أجمع على ذلك المريدون...

- إلى الشيخ أبو كبير يرجع ما ورد فى النشرة عن البيت الكبير..

فقال الشيخ محمود بحنق:

- هذيان ما يقول، من يصدق أن بيتنا هذا ما هو إلا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة، لا أنه الأصل الذى انبثق منه النور؟!

- لم يقصد الحط من بيتكم، كلا، عنى بدراسة بيوت الطريقة الأكرمية فسافر من أجل رسالته إلى الشام وشمالى إفريقيا وإيران ثم قرر الحقيقة التى لا ضير منها وهى أن هذا البيت الكبير ما هو إلا مقام أنشأه الأكرم، بيت من مئات البيوت التى سبقته إلى الطريقة، بل هو آخر بيت وصل إليه النور والهدى..

- ياللفظاعة!..

- قل يا للحقيقة!

- جدى هو مؤسس الطريقة وبيته هو الأصل والمركز.

- إنك غاضب للكبرياء لا للطريقة، طريق الله مفتوح للجميع، وشرف العزة فيه للواصلين مهما يكن موقعهم.

فهتف محمود وكأنما يخاطب نفسه:

ـ الهواء يختفى ليحل محله الحزن، ولن يوجد بعد اليوم مبرر لكى يحافظ العاقل على عقله ولا لبرء المجنون من جنونه.

ـ تأمل ولا تحزن، كم صادف أبو كبير فى تجواله من بيوت ظن أصحابها أنهم الأصل والمركز.

ـ ود أن نضيع فى زحمة لا نهائية!

ـ النور لا يضيع أبدا ولا يفنى...

ـ إنك تسلبنى العزة لتهبنى بلاغة لفظية.

ـ إنك تعانى لأنك لم توجه إلى الطريق قلبك... لم يشغله إلا الجاه، جاه وريث البيت الكبير. أما الأكرم نفسه فقنع بأن يقبس من النور شعلة أصلّها فى هذه الحارة التى أصبحت بفضله مباركة..

قطب الشيخ محمود وقال:

ـ سوف يحتاج الناس لرؤيتنا إلى مجهر كبير!

ـ المهم أن يروا شيئا يستحق الرؤية..

قام الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك ثم رجع وهو يتنفس بعمق. وترامى من الحارة صوت يصيح كالمستجير: «يا سيدى الأكرم على بابك». فضحك الشيخ ضحكة قصيرة لم تنبسط لها أساريره إلا لحظة ثم عادت إلى اكفهرارها. أما الشيخ تغلب فقال:

ـ وإلى الشيخ الدرمللى يرجع ما ورد فى النشرة عن القطب الأول، جدك الإمام الأكرم.

فقال الشيخ محمود بحدة:

ـ ذاك الذى رام نسف الأكرم نسفا.

ـ ليس فى وسع إنسان أن ينسف مولانا الأكرم.

فقال الشيخ محمود برجاء:

- إذن فأنت تؤمن بكذب ما جاء عنه فى النشرة؟!

- كلا!

تلقى الطعنة فى صميم قلبه وهتف:

- ياللفظاعة يا شيخ تغلب! ألم تعد تؤمن بأن الأكرم جاء مصر بين يدى سلسلة من الكرامات؟!

فلاذ الرجل بصمت قاس مغلق المنافذ حيال أى رحمة.

- أتصدق أن القطب الأعظم جاء مصر هاربا عقب ارتكاب جريمة شنعاء؟!

لم يخرج العجوز عن صمته الرهيب القاتل.

- وأن اسمه الذى عرف به ها هنا وهو الأكرم محور عما شهر به فى الخارج وهو المجرم؟!

أصر العجوز على صمته فقال الشيخ محمود يائسا:

- وأنه جاء الحارة أشعث أغبر عارى الجسد لا يختلف شيئا عن الحيوان الأعجم؟!

وتبادلا نظرة طويلة وهو يلهث ثم سأله متحديا:

- أتصدق ذلك عن مولاك الأكرم؟!

عند ذاك تمتم الشيخ تغلب الصناديقى:

- ما أجمل الهدى بعد الضلال! ما أجمل الاستقرار بعد التشرد! ما أجمل الجلال بعد البهيمية! إنه مولاى الأكرم الذى بلغ بجده المراد وكفى!

صاح الشيخ محمود:

- كذب، افتراء، إلحاد، حسد، حقد.. من أولئك الثلاثة خلفت ذرية الأبالسة التى تعيث فى حارتنا فسادا...

ـ مأساتك الحقيقية هى الكبرياء والغرور . . .

ـ أبالسة من ذرية شياطين . . .

ـ لم تحسن معاملتهم كما ينبغى لرجل من رجال الطريق .

فهتف مكورا قبضته فى غضب :

ـ أنصاف مجانين يحلمون بإبادة الصالحين من البشر .

ـ ماذا صنعت من أجلهم ؟ !

ـ قدمت الحلم حيث كان يجب أن أقدم العصا !

ـ ثم دسست من وشى بهم إلى السلطة !

ـ لقد ترامت أصواتهم المزعجة إلى مراكز الأمن دون حاجة إلى وشاية !

ـ لقد زارونى ، حدثونى عن العلم الذى يؤمنون به فحدثتهم عن العلم الذى أؤمن به ، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت ، قلت إن العالِم من رجال الله إلا إذا أراد أن يكون من رجال الشيطان ، قالوا ليس من أهل الطريق من يلهج بالفسق والجشع ، فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار !

وراح الشيخ محمود يحادث نفسه :

ـ كذب ، افتراء ، حقد أسود .

ـ قرب التفاهم بيننا حتى فرقت بيننا الشرطة !

فصاح الشيخ محمود بغضب :

ـ الويل ، لن يبدد ظلمات الأكاذيب إلا الضربات الحاسمة .

ـ العراك سلوك غير جدير بأهل الطريق !

ـ إن صدق ما قال أبو كبير والدرملى فلا طريق هناك ولا طريقة . .

ـ بفضل اكتشافاتهم وضح الطريق . .

فقال الشيخ محمود ساخرا :

- إنى أرتدى البدلة وما على إلا أن أنزع العمامة . . .

- لقد وضعتك الحقائق فى موضع الامتحان ، فاختر لنفسك ما يحلو لها !

- لا اختيار هناك ، إنه طريق ذو اتجاه واحد .

ثم خاطب نفسه :

- ويل لى من العذاب الذى يتبعنى كالظل ! . . ويل لى ! . . وطوبى للذين يعيشون بلا ضمائر ! . .

فصل بينهما صمت كالجدار ، وطال الصمت حتى قال الشيخ تغلب :

- وإلى الشيخ أبو العلاء يرجع ما ورد فى النشرة عن السلوك . .

فصرخ الشيخ محمود :

- ذلك الداعر !

قال العجوز بإشفاق لأول مرة :

- كان خادما فى البيت الكبير قبل أن تولد .

- داعر ماجن سافل !

- الحق أنه اجتهد فصار من المريدين .

- كلماته تقطع بأنه قواد أو منحرف .

- لم يقصد الإساءة ؛ صدقنى !

- ذاك الوحش الذى يتلذذ بتمزيق الأعراض !

- كان يؤمن بأن الطريقة حب خالص ؛ فتابع الحب فى جميع أحواله !

- ذلك الداعر ؟ !

- كان الحب همه الأول والأخير ، وآمن بأن فى قلب كل إنسان بذرة

حب إلهية مهما يكن من مساراتها فهى تتجه فى النهاية إلى الحبيب الأوحد!

- يا شيخ تغلب إن هى إلا أكاذيب افتريت بقصد القضاء على أسرتنا المجيدة!

- لو وهبت الطريق قلبك ما أكربتك الوساوس ولا اهتزت شعرة فى رأسك لأقاويل الناس.

- يا ويلى من الذين ينثرون لى الحكم وأنا أحترق فى الجحيم!

- لو عاصرك الرجل لوجد عندك مادة لكتاب قائم بذاته.

فقال غاضبا متحديا:

- إنى رجل محمل بالخطايا ولكنى أنتمى إلى أسرة طاهرة مقدسة، وما أصحابك إلا دجالون مجرمون.

- لقد صارحتك بما عندى، هو الحق والصدق، ليس فيه ما يزرى بقيمة حقيقية، ولا ما يسد الطريق فى وجه مؤمن. وكما ترى لم يتزعزع لى إيمان بالطريقة ولا بصاحبها رضى الله عنه.

- سأقدم لك الدليل على كذبهم.

ومضى نحو الباب المفضى إلى الداخل ونادى بأعلى صوته:

- يا أم هانى.. يا أم هانى.

ثم التفت إلى العجوز قائلا:

- إذا ثبت كذب أحدهم انهار البناء من أساسه.

ولكن الشيخ تغلب قام وهو يقول آسفا:

- أستودعك الله، لا أحب أن أقوم بينك وبين مربيتك.. إن وجدت جديدا فاستدعنى، ودعنى أقول لك مرة أخرى: «تأمل ولا تحزن وابدأ طريقك».

قال العجوز ذلك ومضى نحو الباب الخارجى :

على حين تحول الشيخ إلى الداخل وهو يصيح :

ـ يا أم هانى . . يا أم هانى . .

٥

انتظرها فى الردهة المفضية إلى بهو الاستقبال، ثم قادها من يدها إلى المكان الذى أخلاه الشيخ تغلب الصناديقى . انسابت آثار النوم فى تجاعيد وجهها وعينيها الكليلتين وجعلت تتثاءب بصوت كالأنين وهى تتساءل :

ـ كم الساعة الآن؟

ـ نحن فى أواخر الليل يا أماه .

ـ وماذا يبقيك مستيقظا حتى الآن؟

ـ إنها ليلة لم تخلق للنوم فيما أرى . .

ـ لِمَ والعياذ بالله؟

فتفكر حائرا من أين يبدأ ثم تمتم :

ـ دعوتك لأمور مهمة، فأصغى إلىّ جيدا وافتحى لى قلبك بلا تردد . .

ـ ليكن ما دعوتنى من أجله .

ـ الخير يتوارى هذه الأيام فى بطون الزواحف السامة .

ـ ماذا بك يا بنى؟

ـ لقد عاصرتِ أبى وأمى وعمتى، ربيتنا جميعا وأرضعتنا .

ـ ليمد الله فى أعمار الباقين وليرحم من انتقلوا إلى جواره .

فجلس إلى جانبها وهو يقول :

ـ أطالبك بالصدق والصراحة ولو زلزل ذلك السماوات السبع ، سنعود معا فى رحلة طويلة إلى الماضى .

ـ الماضى ؟ !

ـ أجل ، الماضى ، الماضى الذى يتوارى بمكر أحيانا كاللص ولكنه لا يموت ، ثم يبعث بغير دعوة ولا رغبة .

ـ لا أفهم ، عم تتكلم يا بنى ؟

ـ لا شك فى أنك تتذكرين عمتى . .

ـ طبعا ، يرحمها الله . .

ـ حدثينى عنها .

ـ أنت تعرف كل شىء عنها ، ليرحمها الله .

ـ دعينى مما أعرف وحدثينى عما لم أعرف .

ارتسم القلق فى صفحة الوجه الضامر وقلقت شفتاها دون أن يند عنها صوت .

ـ إنها لم تمت كما قيل يا أماه !

ـ ليرحمها الله .

ـ لم تمت ، لا فائدة من الإنكار . عشرات وعشرات من أبناء حارتنا يعرفون اليوم الحقيقية فلا جدوى من إخفائها .

هتفت المرأة مستغربة :

ـ أبناء حارتنا ؟ !

ـ نعم ، إنهم يقرءون مغامراتها بشغف شيطانى ويتندرون بها . .

ـ لا أفهم شيئا .

ـ ألم تسمعى عن الشيخ أبى العلاء؟

ـ رضى الله عنه.

ـ فلتمزقه أيدى الأبالسة فى الجحيم الأبدى.

ـ يا رب السماوات!

ـ تكلمى يا أم هانى.

ـ لم تفسد الطيبات التى أنعم الله بها عليك؟

ـ أستحلفك بالله.. بأبى... بمولانا الأكرم.

ـ لا تحفر فى الماضى الذى مضى.

ـ أحق ما يقال من أنها عشقت فى شبابها ضابطا إنجليزيا؟

ـ يا ألطاف الله!

ـ وأنها هربت إليه بليل ثم رحلا معا إلى إنجلترا؟

تراجعت العجوز فى فزع، تمتمت:

ـ من؟!... كيف؟!... ارحم نفسك يا بنى.

ـ هل مرقت من دينها حفيدة القطب الأعظم؟

ـ اللهم ارحمنا.

ـ كذبينى إن استطعت.

أغمضت المرأة عينيها فى حزن ويأس.

ـ أكان بعض كبار الإنجليز يدعون إلى بيتنا هذا على عهد أبى؟

ـ كان له أصدقاء منهم ولا عيب فى ذلك.

ـ ولكن أحد أولئك الأصدقاء الكرام انقض على أخته فطار بها.

ـ قلبى يتقطع يا بنى.

ـ تمنيت أن تكذبينى، ولكن الحقيقة كالموت لا مهرب منها ولا نجاة.

وهز رأسه فى يأس ثم عاد يقول :

ـ وقيل وقتذاك فى الحارة إنها سافرت للعلاج ، ثم أذيع بعد ذلك أنها غرقت فى البحار فأقيم مأتم أمه المريدون وغيرهم من أبناء حارتنا الطيبة الساذجة . كان أى شيء يجوز على حارتنا التى لم يعد يجوز عليها شيء .

أطرقت المرأة حتى خيل إليه أنها نامت أو ماتت . لم يجد فى قلبه قدرة على العطف ، ولكنه قال :

ـ لا تؤاخذينى على إزعاجك ، أنت أم الأسرة وسرها ، وحولك تتفجر أحداث مفجعة فلا مفر من أن يصيبك رشاش منها !

وكان يغوص فى ظلمات اليأس بلا توقف ، بيد أنه لم يجد بدا من السير فى طريق الأحزان حتى نهايته . قال لها :

ـ حدثينى الآن عن أختى رشيدة !

رفعت المرأة رأسها فى فزع .

ـ لا تجزعى فلا يخفى اليوم سر .

ـ لتبعد عنا الشياطين !

ـ لكنها تزحف علينا من جميع الجحور .

ـ كف عن هذا العذاب .

ـ لقد خلقت هذه الليلة للعذاب .

ـ كأنى لا أعرفك يا بنى .

ـ ولا أكاد أعرف نفسى ولا طريقتى ولا حارتى ، ولكن قيل إنى مجرم من سلالة مجرمين .

ـ بنى !

ـ حدثينى الآن عن أختى رشيدة ، لا تخافى عليها ، إنها تعيش اليوم

فى كنف زوج كبير المقام فى أقاصى الصعيد، ولكن سيرتها الخفية يقرؤها المطلعون من أبناء حارتنا .

- كيف تفتح أبواب الجحيم بيديك؟

- لقد فتحها الزبانية .

انتحبت أم هانى بحرارة فقال :

- لا تبكى، لا فائدة، ولكن تكلمى .

فهتفت :

- ليقطع لسانى إن نطق بسوء . .

- لقد لعبت البنت لعبة غير لا ثقة مع خادم، كذبينى إن استطعت!

- اللهم احفظنا . .

- لعبة ليست غريبة فى هذا البيت، فقد لعبتها أنا مع أخريات! هكذا يتلقانا الشيطان جيلا بعد جيل .

- يا رب عفوك ورضاك!

- لا شك فى أن أبى حزن حزنا بليغا، أخته فابنته ثم ابنه، لعله تساءل طويلا عن سر عذابه، ترى ماذا كان يقول فى خلوته؟

- كما يجدر بالمؤمن الصادق .

- ولا شك فى أنه عانى كثيرا قبل أن يعثر لها على زوج مناسب!

تنهدت المرأة قائلة :

- لقد قصرت عمرى يا بنى .

- كلانا يتلقى الضربات يا أماه .

وغشيهما صمت غير قصير، ثم قادها إلى الداخل كما جاء بها وهو يقول :

- سامحينى، لقد حملتك من العذاب ما لا طاقة لك به .

ولما رجع إلى البهو وجد الشيخ عمار فى انتظاره. وقفا متقابلين يتبادلان النظر، ثم قال الشيخ عمار:

ـ آن لك أن تنام يا مولاى.

ضحك الشيخ ضحكة لا حياة فيها، فقال الشيخ عمار:

ـ فلنفكر مليا ثم نشرع فى العمل بلا تردد.

فلوح الشيخ محمود بيده فى غضب وصاح:

ـ يا شيخ عمار.. لا تحدثنى بلغة الحكماء، فلست حكيما. إنى مجرم تجرى الجريمة فى عروقه منذ القدم، شد على قبضتك.. اشحذ سلاحك. سدد ضرباتك. نحن نخوض معركة حياة أو موت تحتاج إلى الدهاء والقسوة والعنف لا المأثورات الجميلة. إنك ثعلب ماكر وإنى لفى حاجة إلى كل نقطة مكر فى صدرك. لا تعن بالمحافظة على المظاهر الرقيقة فقد فاحت روائح الباطن الكريهة. إلىّ بجميع الشياطين التى تقيم فى هذا البيت واستعر من تستطيع من شياطين الحى كله. كفاك خداعا بالفضائل الكاذبة.. واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائعة المخلوقة أصلا للكفاح والنصر. لنتصرف بسرعة.. وبقوة.. وبلا رحمة، ليكن سلوكنا كما ينبغى لأناس سادوا بعد هرب موفق من مسرح جريمة بشعة... ثم هاموا على وجوهم كالوحوش يأكل بعضهم بعضا. ولما شيدوا من أسلاب الضعفاء قصرا جعلوه ميدانا لألعاب الخسة والفسوق.. يا شيخ عمار هلم إلى ساحة الغدر والجريمة والعنف.

٦

ـ الحال خطيرة، وستزداد مع الأيام خطورة!

قال الشيخ عمار ذلك للشيخ محمود وهما يقفان مستقبلين الحديقة فى ساعة الأصيل. تجاهل الشيخ محمود قوله رانيا إلى الحديقة ثم قال:

ـ ما أهدأ ساعة الأصيل!.. كأنها الوقفة الصامتة بين الشهيق والزفير!

ـ لن تعرف حارتنا الهدوء بعد اليوم.

فقال الشيخ محمود بحدة:

ـ لم يبدأ الشر من جانبنا.

ـ هذا حق ولكن وقع اعتداء على بعض رجالنا الطيبين.

ـ شر لا مفر منه، أما الأبالسة فقد اجتاحتهم العاصفة.

ابتسم الشيخ عمار قائلا:

ـ عليهم اللعنة، ولكن هل تأذن له يا مولاى؟ لقد تركناه ينتظر طويلا!.

ـ إنى أمقته، ولكن فليحضر!

غادر الشيخ عمار بهو الاستقبال وما لبث أن دخل على عويس. جاء بوجه متجهم فلاقاه الشيخ بنظرة جافة باردة. حياه الشاب بالسلام فرد الشيخ بغمغمة ولم يمد يده. قال الشاب:

ـ لقد جئت...

ولكن غلبه الانفعال فسكت. تركزت عليه النظرة الجافة الباردة دقيقة كاملة ثم سأله:

- ماذا تريد؟

- أنت أدرى بما دفعنى إلى المجىء . . .

- لا تضيع وقتى بالألغاز.

- رجالكم يتحرشون بنا فى كل موضع.

- أكنت تتوقع عاقبة أخرى؟

- كنا نتوقع مناقشة تهيئ للجميع توازنا ونقاء!

- أصبح فى كل بيت شقاق، وأنتم أصل البلاء والفتنة.

- ما أردنا إلا . .

فقاطعه بحدة وازدراء:

- لقد عرفتم منى جانبا لينا ولكنى أملك جانبا آخر وعرا. .

- سيدى . .

فقاطعه للمرة الثانية وبعنف أشد:

- إن من يتحدى المقدسات مثلك لا يليق به أن يكون جبانا!

- لست جبانا وليس فينا من جبان!

- إن من يدس إلى الناس نشرة ملأى بالافتراءات جبان.

- ليس فينا من جبان، وإذا تمادى رجالكم فى التحرش بنا فقد تعصف بحارتنا مأساة مؤسفة!

- أتهددنى؟! افعل ما بدا لك، وستنال التأديب الذى تستحقه . . .

- ليس نشر الحقائق جريمة، ونحن لم نقصد بنشرها إلا الخير!

- اخسأ أيها الوغد الكذاب!

- لقد اكتشفها رجال من طريقكم يعدون من الأئمة.

ـ لم يكونوا إلا أوغادا مثلكم ومنذ قديم وأسرتنا هدف للقلوب السوداء الحاسدة .

ـ لا تنظر إلى الخلاف من هذه الزاوية .

فقال بكبرياء وحنق :

ـ اعرف نفسك واعرف من تخاطب .

ـ أتعيرنى بأبى؟

ـ افهم ما تشاء .

ـ كان رجلا شريفا .

ـ كان رجلا حقيرا .

هتف الشاب بغضب :

ـ لم يرتكب جريمة . . .

ـ لعله كان أحقر من ذلك .

ـ ولم يلوث الدنس بيته .

جن جنون الشيخ . هم بضربه . كبح جماح غضبه متراجعا فى اللحظة الأخيرة . قال :

ـ فى بيته الحقير ترعرعت جريمة الكفر .

ـ أشياء تسمى بغير أسمائها .

ـ وفى بيته أيضا دنس خفى لم يجد من يعنى بنشره لحقارته . .

صاح الشاب :

ـ لا تتهجم على الشرفاء .

أعماه الغضب تماما فصاح بدوره :

ـ ما أبعدك عن الشرف ! . . سل أختك عن معنى الشرف .

فصرخ على عويس :

ـ أختى أشرف من أسرتك!

وقبل أن يتم جملته هوت على صدغه لطمة. قبض على يد الشيخ. تلاحما بعنف غير متوقع. صاح الشيخ:

ـ أتعتدى علىّ فى دارى؟!

وإذا بالشيخ عمار يندفع داخلا متبوعا بعدد من الخدم فانقضوا على الشاب. قبضوا عليه، أسكتوا مقاومته، ساقوه إلى الخارج وهم ينهالون عليه ضربا. وأخذ الشيخ يسوى هندامه وهو من الغضب فى نهاية. وجعل يذهب ويجىء ويحدث نفسه لاعنا متسخطا وحانت منه التفاتة نحو مدخل البهو فرأى زينب!

تسللت الدهشة إلى بركان غضبه. رماها بنظرة قاسية. اقتربت متمهلة فى إشفاق حتى وقفت فى وسط البهو. لم يرد لها تحية ولم يدعها إلى الجلوس.

ـ معذرة... لقد اندفعت إلى الداخل بغير استئذان...

سألها بجفاء من خلال غضبه المشتعل:

ـ ماذا تريدين؟

ـ علمت بمجىء أخى فقررت أن ألحق به..

ـ أرأيته وهم يخرجونه؟

أجابت بقلق:

ـ كلا... ماذا حدث؟!

ـ أكنت تتوقعين لقاء أفضل بينى وبينه؟

ـ كلا. ولكن لا بد من كلمة تقال.

ـ تتكلمين هذه المرة بأدب يقطع بشعورك بالإثم.

ـ لابد من كلمة تقال.

ـ أى كلمة؟

ـ أعنى بسبب الأحداث المحتدمة فى حارتنا . . .

ـ بسبب سفاهتهم شبت النار فى كل بيت .

ـ ولذلك لا يجوز السكوت . .

ـ ماذا تريدين؟

ـ ينعقد الرجاء الآن على الحكمة .

ـ فات أوان ذلك ولم يبق إلا التأديب والردع .

قالت زينب بإشفاق :

ـ إنه يعنى الهلاك للجميع .

ـ بل الهلاك للمجرمين وحدهم .

ترددت ثم قالت :

ـ ولكنك . . .

وتوقفت لحظات كأنما تعانى ضيقا ، ثم قالت غاضة البصر والصوت :

ـ ولكنك الأب الروحى للجميع !

تجلت فى عينيه قسوة بالغة وقال :

ـ تنطقين عن كذب وضيع ، إنى أحتقر جبنك !

خرس لسانها تحت وطأة الضربة المهينة ، فقال بسخرية :

ـ كأنما تعترفين بجريمة مخزية !

جمعت أطراف شجاعتها لتقول :

ـ ولكن مركزك التقليدى فى الحارة حقيقة لا يمكن إنكارها !

ـ لا تتمادى فى الكذب دفاعا عن أخيك . .

ـ لعل الأمر أصبح أكبر من ذلك . .

ـ لا تصرى على الكذب، لا يهمك إلا أمره وحده، ألم تطلعى على نشرته المسودة بمداد الحقد؟ . . .

لم تنبس بكلمة فقال بحنق:

ـ إنك وراء ذلك كله كالدمل الكامن وراء أورام خبيثة . .

ـ ليكن ظنك ما يكون، ولكن نصف الحارة يتحرش بنصفها الآخر، ثمة عواقب وخيمة تتجمع فى الأفق.

ـ إنى مؤمن بأنك وراء كل مقت فى هذا الخصام الوبيل.

ـ لقد ذهب سوء الظن بك بعيدا . .

ـ لا أشك فى أنه ورث حقده الأعمى علىّ من حقدك الأبدى . . .

ـ فليسامحك الله . . .

ضرب الأرض بقدمه وهتف:

ـ ليس من حقك أن تلعبى دور الضحية البريئة. لم تكونى ضحية قط!

ثم رماها بنظرة تحد وهو يقول:

ـ لقد كان ما كان وأنت فى كامل اختيارك!

فتساءلت بفزع:

ـ ماذا يرجعك إلى ماض مضى وانقضى؟!

ـ إنكم تهاجمون الأعراض وتنسون أنفسكم، فدعينى أذكرك بما كان، وبأنك لم تكونى ضحية لأحد، ولكنك تصرفت كما يجدر بامرأة مستهترة!

فهتفت:

ـ يا لك من رجل لا يفرق بين أنبل المشاعر وأحطها!

فتمتم بحقد وغضب:

- مستهترة، أجل، مستهترة!

فغلبها الغضب على حلمها وصاحت:

- يا لك من رجل حقير!..

- مزقى ستار الأدب الزائف، واكشفى عن الحقد المخزون فى أعماقك، يا بئس الصغيرات اللاتى يتلقين العلم على يديك!

- مجرم عريق فى الإجرام!

- ارجعى إلى بيتك، وانزوى فى ركن مظلم متلفعة بعارك..

- أيها الوغد!..

- اعترفى لأخيك بعارك ليكف عن الخوض فى سيرة الأعراض!

- لقد جننت أو أنك على وشك الجنون، هى النهاية ولا راد لها.

- لقد حز فى نفسك يوما أن أرفض الوقوع فى فخ الزواج الذى نصبته لى، حز فى نفسك أن تنفردى بعارك كامرأة عانس، ولعلك توهمت أنك تثأرين لنفسك بنشر الأكاذيب عن أعراض الشرفاء.

- ليت مريديك يرونك وأنت على هذه الحال.

- ليتهم رأوك وأنت ترسمين الخطة الحمراء لتكونى زوجة لخليفة الأكرم.

- ماذا أقول لرجل لم يشعر قلبه بقيمة نبيلة قط؟! ماذا أقول لرجل يستمد معارفه عن النساء من دنيا الساقطات المحترفات؟! ماذا أقول لرجل خسيس يخطر فى لباس شيخ طريقة؟!

لبث يرميها بنظرة قاسية متشفية، ونوازع الشر المتضاربة تقلقل عينيه. وأخيرا قال كمن يود التخلص منها:

- اغربى عن وجهى، حتى أخوك كان دونك وقاحة..

فغرقت فى صمت ثقيل لا تنبس بحرف:

ـ اغربى عن وجهى !

تنهدت وقد تملكت مشاعرها ، وقالت :

ـ ماضينا لا يهم سوانا ، أما الهلاك فإنه يهدد الجميع !

ـ عودى إلى بيتك .

ـ لنرجع إلى الحديث الأهم .

ـ عودى إلى بيتك .

فقالت بهدوء نسبى :

ـ لم أجئ أصلا للشجار ، ولكنك أنت الذى دفعتنى إلى الجنون .

ـ هو خير على أى حال من الكلمات الخانعة ذات الطلاء الكاذب . .

ـ أسأت فهم مقصدى . .

ـ لن تهدر حياتى بلا ثمن . ألم يقل أخوك إننى بلا أصل ولا شرف؟ حسن ، سأعامله كما يليق برجل لا أصل له مثله ولا شرف له مثل أخته !

أحنت رأسها فى حزن شديد . غلبها الإعياء فاضطرت إلى الجلوس الذى لم تدع إليه . هز منكبيه باستهانة وهم بالذهاب إلى الداخل وهو يقول :

ـ خذى راحتك ثم اذهبى .

غالبت ضعفها الطارئ فقامت قائلة :

ـ انتظر . .

فتحرك وهو يقول :

ـ لا وقت عندى لمهاترات النساء .

ـ آجلا أو عاجلا ستوعز بقتله .

ـ قلت لا وقت عندى .

ـ أعلم أنه فى مقدرتك أن تقتله وأنت آمن .

ولما لم يتوقف اعترضت سبيله قائلة :

ـ انتظر .

ـ ابعدى عن طريقى .

ـ أصغ إلى .

ـ كفاك ثرثرة . . .

ونحاها جانبا وسار نحو الباب الداخلى فهتفت :

ـ إياك أن تمسه بسوء ، أتسمعنى؟! إنه . . .

وغصت بعبرة ولكنها صاحت بصوت خشن متهدج مختنق :

ـ إنه ابنك! من لحمك ودمك . .

٧

تسمر الرجل فى مكانه . استدار بعنف غاضب دارى به فزعا لم يستطع إخفاءه . تراجعت المرأة إلى الديوان فارتمت فوقه ، ثم استسلمت لموجة عاتية من النحيب . تبعها مهرولا . وقف أمامها يحملق فيها يود أن ينفذ إلى أعماقها .

ـ ماذا تقولين؟!

ولكن البكاء المتدفق لم يمكنها من النطق .

ـ ماذا قلت؟! أجيبى من فضلك؟

على رغم مغالبتها للبكاء فإنها لم تغلبه بعد فعاد يتساءل بنفاد صبر :

ـ ابنى؟! . . ماذا قلت؟
حركت رأسها بالإيجَاب دون أن تنبس .
ـ أى قول؟! . . أى لعبة؟!
مضت تجفف دموعها . اعتدلت فى جلستها . لم ترفع عينيها عن الأرض .
ـ ابنى؟!
همست :
ـ نعم .
ـ كلا . .

* * *

ـ إننى . .
ـ لم تشيرين إلى بطنك؟ . آه . . كلا .
ـ بلى .
ـ ألم تأخذى حذرك؟
ـ على رغم ذلك حصل .
ـ تصرفى . . إنك أدرى بهذه الأمور .
ـ إنى خائفة يا محمود .
ـ تصرفى وإلا ساءت العاقبة .
ـ لا تكن قاسيا .
ـ لست قاسيا ولكن عليك أن تتصرفى .

* * *

ـ لكنها الحقيقة .
ـ قول يخرق المعقول ، إنه أخوك ، فكيف أصدق أنه ابنك؟!

ـ ولم أدّعى ذلك اليوم بعد سكوت عشرين عاما؟!

قال بارتياب:

ـ لعلك تتصورين أن . .

فقاطعته قائلة:

ـ إنه ابنك وكفى، لن يغير جدل من هذه الحقيقة!

ـ هل علم بذلك؟

ـ كيف تتخيل ذلك؟!

ـ ولا أحد غيره؟

ـ كلا، وقعت فى المأزق عقب وفاة أبى بأيام، أعلنت المرحومة أمى أنها حبلى. أقمنا زمنا عند جدتى بالمرج حتى وضعت، ثم عدنا إلى حارتنا وهى حاملة ابنى بوصفه ابنها هى . . .

تنفس بعمق وهو لا يحول عنها عينيه وتمتم مذهولا:

ـ ابنك وابنها؟!

ـ لم أتصور أننى سأبوح بسره إلى أحد ولكنك دفعتنى إلى ذلك دفعا.

ـ أأنت فى كامل قواك العقلية؟

ـ ليتك كذلك!

ـ أتريديننى على أن أصدق أنه ابنى وأننى أبوه؟!

ـ هى الحقيقة التى لا مفر منها.

رفع الرجل رأسه هاتفا:

ـ ما أعجب هذه الحارة! تنام أعواما نوم الأموات ثم تتفجر بها شواظ العجائب كالشهب المجنونة فى ليلة واحدة بغير حساب!

ـ لا مفر من الحقائق، ستطاردنا اليوم أو غدا . .

ـ لا شيء هو هو، السماء فوقنا وتحتنا في آن، ماذا يجدر بنا أن نفعل؟

قالت متأوهة:

ـ لم يجر لي في خاطر أنه سيقف أمامك متحديا ولا أنك ستجيبه مهددا بالموت!

ـ لقد ترامت إلى قذائفه قبل أن أسمع باسمه.

ـ شد ما أرعبني ذلك.

قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ كم حيرتني عيناه! كم عانيت من تناقض العواطف في أول لقاء، ولكن . . . رباه حذار من الخداع يا زينب!

ـ أف . . تخل عن شكوك سخيفة لا مبرر لها.

فهز رأسه مغمغما:

ـ إذن هو ابني!

ثم واصل هز رأسه قائلا:

ـ وأنا أبوه . .

وتنهد من الأعماق وقال:

ـ فلأسلم بهذه الحقيقة، سيلزمني دهر لهضمها، ولكن على أن أسلم بها . .

والتفت نحو المرأة متسائلا:

ـ كيف وُلدت الكراهية في قلبه نحوى؟

ـ لا أدرى . .

ـ لعله لم ينشأ نشأة دينية صادقة؟

ـ نشأ متدينا، ولكنه . .

ـ ولكنه؟

ـ عانى وما زال يعانى حياة فقيرة مريرة .

ـ هو جال الأكثرية الساحقة فى حارتنا .

ـ ولكن يحدث أن يتنبه إلى الفوارق فى المدرسة، ثم تصادفه كلمات هنا وهناك فيقرؤها باهتمام يفوق الحد، ويكثر من التساول والنقاش، ثم يلقى نظرات غريبة على البيت الكبير، ثم تزلزل الأرض ويخلق شخص جديد!

فتفكر مليا ثم تساءل :

ـ ترى هل ينقلب إذا وجد نفسه فجأة فى البيت الكبير؟

فسألته فزعة :

ـ فيم تفكر؟!

ـ إنه محض سؤال!

ـ حسن، عهدته يفكر فى الآخرين أكثر مما يفكر فى نفسه، أو قل لا يفكر فى نفسه إلا من خلال الآخرين . .

فقال بكآبة :

ـ براءة مؤقتة تنطوى مع الشباب الأول!

ـ لا أظن ذلك .

ـ يا لله، إنه يهزأ بجميع القيم التى يلتحم بها بنيان حارتنا .

ـ لا أدرى كثيرا عن ذلك!

ضرب كفا بكف قائلا :

ـ وقد دمر نفسه تدميرا وهو لا يدرى . . .

فحدجته بنظرة حزينة متسائلة فاستطرد :

ـ شد ما اجتهد اجتهادا عبقريا ليثبت للملإ إجرام جده وهوان بيته ودعارة أهله!

ـ زعم أنه ينشر حقائق يجب احترامها!

ـ أساذجة أنت أم ماكرة؟! ليست المسألة محض عبادة للحقيقة، ولكنها ذات عواقب محتومة، فلا ضمان للنذور بعد الأخذ بها، وسرعان ما ترتفع الأصوات مطالبة إيانا بالأموال المكدسة وريع العمارات!

فقالت بعد تردد وفى إشفاق:

ـ لا شك فى طيبة نواياهم!

ـ بل لمست فى حديثهم الحقد والحسد والرغبة فى الاعتداء.

ـ إن ما دفعنى إلى المجىء إلى هنا هو أن أضرع إليك لتغلب الحكمة..

ـ أخشى أن تكون الفرصة قد أفلتت.

ـ حتى بعد أن علمت بما علمت؟

ـ الصراع الناشب اليوم أقوى من أى علاقة شخصية.

وذرع المكان ذهابا وإيابا فى اضطراب واضح ثم عاد إلى موقفه أمامها وهو يقول:

ـ الصراع اليوم أقوى من أى علاقة شخصية، وفضلا عن ذلك فسوف يظل جاهلا بحقيقة نسبه، ولن يكف ـ هو وأصحابه ـ عن عنادهم المقيت. ومن الناحية الأخرى فإن كبار رجالنا قد أخرجهم الغضب عن جادة الاعتدال.

ـ ولكن الحكمة تستطيع أن تقدم خيرا..

ـ أين يمكن أن توجد الحكمة فى حارتنا التى زلزلت أركانها؟!

ـ أستحلفك بالله ألا تيأس..

ـ صدقيني لقد اختل ميزان كل شيء، خرجت النجوم عن أفلاكها، والكلمات عن منطقها، وتمخضت قباب الأضرحة عن أوثان!

ـ ثمة طريق للنجاة!

ـ من أدراك؟ . . . لقد سدته الزبانية!

ـ ولكنك رجل محنك ذو نفوذ شامل.

فضحك ضحكة هازئة وقال:

ـ كنت مستندا إلى عراقة أصل وامتياز بيت وكرامة أسرة، أين أولئك؟ أين؟

ـ الذين يؤمنون بك لا حصر لهم.

ـ مع الزمن سيرى الناس فيّ رجلا غارقا في الخطايا ملوثا ضائعا، شيد من أموالهم بفساد ذمته بناء ضخما.

ـ أكثر الناس ليسوا أفضل من ذلك.

ـ ولكنهم لا يدّعون ولاية ولا يطالبون أحداً بطاعة. .

فرفعت إليه عينين دامعتين وقالت:

ـ ترى هل أفشيت سره بلا ثمن؟ . . بلا فائدة؟

فقال بامتعاض:

ـ للأسف لن يرث عني إلا الخطايا، وربما ضعنا في الصراع معا!

ـ حسن أن تفكر فيه بعطف لأول مرة. .

ـ ألم تفكري في البوح له بالسر؟

ـ لو فعلت لحطمته تحطيما. .

عاد يذهب ويجيء وهو يقول:

ـ اللهم ألهمني الصواب، اللهم بدد جيوش الظلمات. .

ورجع إلى موقفه وقد تضاعف تجهمه ثم قال:

ـ كدت أنسى! لقد دفعنى الغضب إلى طريق وعر . .

ـ أجل فقد اعتدى عليه بعضهم .

ـ هنالك ما هو أفظع من ذلك!

حدجها بارتباك، ثم عاد يقول :

ـ لقد عرضت بشرفه!

ـ شرفه؟! . . ماذا تعنى؟

ـ أشعل غضبى لحد الجنون، عيرنى متحديا فصحت به أن بيته ليس أشرف من البيوت التى يعرّض بها!

ـ خبر أسود!

ـ ذكرتك بطريقة ما .

هبت قائمة فى فزع هاتفة :

ـ كلا .

فأجاب بأسى :

ـ بلى!

ـ أنت ؟!

ـ دفعنى إلى حافة الجنون . .

ـ رباه . . هل لمحت إلى ذلك التاريخ القديم؟

ـ كلا ولكنه غادر بيتى فاقد العقل ولا شك فى أنه يجدُّ الآن فى البحث عنك .

ـ إنه يظن الآن أنك تسعى إلى فضحه انتقاما منه، يا للكارثة! . .

ـ أكدى له أنها محض أكاذيب لم أرددها إلا رغبة فى الانتقام منه . .

ـ ترى أيصدقنى؟

ـ سيصدقك، إننا نصدق ما نحب أن نصدقه .

ـ وإن طاردني بشكوكه؟

ـ أصرى على رأيك، ما عسى أن أقول أكثر من ذلك؟ إنى غارق فى محيط من المشاكل التى تبدو لا حل لها . .

شملهما صمت. تبادلا نظرة طويلة. بدا شاحب اللون غائر النظرة كما بدت دميمة من أثر البكاء والغم، وتساءلت بلهفة:

ـ أأرجع إلى بيتى بلا بارقة أمل؟

فقال متنهدا:

ـ لا أعد بشيء لا سيطرة لى عليه، يلزمنى وقت أخلو فيه إلى نفسى . .

ـ وكيف أذهب ولا شيء فى يدى غير الخواء؟

ـ لقد عريت مزيدا من الحقائق، حسبك هذا . .

ـ ولكنه لم يغير من القضاء فيما يبدو؟

ـ لقد أتخمت بالحقائق المفزعة، ويلزمنى وقت أخلو فيه إلى نفسى.

ـ دعنى أكرر عليك أن الحكمة تستطيع أن تقدم خيرا.

ـ لا طاقة عندى لسماع جديد.

ـ أذهب؟

ـ بسلامة الله . .

همت بالذهاب ولكنها عدلت، ترددت متفكرة. ثم قالت:

ـ لقد رميتنى بشتى التهم . . تصورت أن أى حقد تحداك إنما يُستمَد من حقدى الأبدى. دعنى أقول لك قبل الذهاب، دعنى أقول لك . . إنك . . مخطئ!

نظر إليها بعينين متعبتين وتساءل:

ـ ماذا تعنين؟

فقالت وهى تمضى إلى الخارج :

ـ أستودعك الله .

أتبعها عينيه حتى اختفت . تساءل : ماذا تعنى؟ ! سرعان ما شدته الهموم إلى دوامتها . جلس على الديوان وأغمض عينيه . دخل خادم فأضاء النجفة والمصابيح ثم ذهب . استشف جفناه الضوء فانقبض قلبه لمقدم الليل . ترامى إلى أذنيه وقع عصا على أرض الحجرة . فتح عينيه ملتفتا نحو الباب فرأى الشيخ تغلب الصناديقى .

٨

قام الشيخ محمود إلى القادم وهو يقول :

ـ أهلا بك يا شيخ تغلب .

ومضى به إلى الديوان والعجوز يقول :

ـ هاتف دعانى إلى لقائك .

ـ أهلا بك وشكرا لك .

فسأله برقة لأول مرة :

ـ كيف حالك؟

ـ النار أرحم من رأسى وقلبى . .

ـ وأرحم من الغضب الذى يجتاح حارتنا . .

ـ ياله من موقف يا شيخ تغلب .

ـ وماذا يقول رجالك الكبار؟

ـ صدق عزمهم على مقابلة التحدى بمثله .

- لا غرابة فى أن يدافعوا عن مصالحهم!

فتساءل الشيخ محمود غاضبا :

- والآخرون ماذا يحركهم؟

- إنهم بحكم سنهم أقرب إلى البراءة .

- فات وقت الجدل .

- ولكن ثمة مجالا للعمل . بم طالبك أبوك قبل وفاته؟ ابدأ اجتهادك فى الطريق وسوف يقودك من خير إلى خير .

نفخ الرجل قائلا :

- رأسى مزلزل!

- أفقدت إيمانك بالله؟!

- كلا ، صدقنى ، ولكن رأسى مزلزل .

- ألا تؤمن بالطريق؟

صمت مليا ، ثم قال :

- إذا تهاوى بناء شامخ فما جدوى أن تسأل عن حجرة من حجراته؟!

- إذن تريد أن تواصل حياتك كشيخ طريقة بلا طريقة؟!

- أعترف لك بأن ذلك لم يعد ممكنا . .

- اعتراف سعيد ولكن خبرنى أكان فى نيتك أن تستمر فى ذلك إلى الأبد؟

تفكر الشيخ باسما فى أسى :

- كنت دائما أؤجل البدء ، إنه الكسل وعشق الحياة ، وأعترف لك بأن ثمة نكدا لا يكف عن مطاردتى . . .

- اعتراف سعيد ثان!

- من السخرية أن تذكر السعادة فى هذا الجحيم.
- ظننت أن عواقب الكسل ستضيرك وحدك ولكن ها هى ذى تعصف بالحارة كلها . .
- مرتكبة ما يخطر بالبال، وما لا يخطر!
قال العجوز باستبشار:
- فى صوتك نغمة جديدة لعل سرها هو الذى دعانى إليك . .
- لا تبادر إلى التفاؤل بلا مبرر!
- توكل على الله واتخذ قرارا!
- كيف لقلب مزلزل أن يتخذ قرارا؟!
- اتخذ قرارا.
- يخيل إلى أننى لست كجدى الأول إن صح ما يقال عن اجتهاده العجيب . .
- تقول إن صح؟
فقال بحدة:
- أجل، فمن يدرينى أن اجتهاده لم يكن إلا أسطورة كما كان أصله وبيته وكما كانت أسرته؟
فهتف الشيخ تغلب:
- حذار من الشك!
فقال الرجل بامتعاض:
- لقد زرعته فى قلبى يا شيخ تغلب.
- ثمة جوهر حقيقى باق تحت ركام من أوهام لا قيمة لها.
- أنت نفسك لم تعد تؤمن بمعجزات الأكرم.

ـ أكرر القول بأن معجزته الحقيقية هى أنه على رغم خطاياه قد بلغ المراد باجتهاده .

هز الرجل رأسه بمرارة ، فقال الشيخ تغلب :

ـ اعزم ، العمل يقتل الشك ، النجاح يقتلعه من جذوره ، فى وسع أى إنسان أن يكون نافعا للناس . على ضعفى وعجزى كنت القوة التى أقنعت كثيرين من أولياء الأمور بإرسال أبنائهم إلى المدارس !

ضحك الشيخ محمود بمرارة وقال :

ـ أرسلتهم فى الطريق الذى قوض أركان إيمانهم !

ـ الإيمان يتجدد تحت مظاهر شتى خلال الزمن . . .

ـ ما جدوى المناقشة ونحن على وشك القتال ؟ ! وقد يقتل الأب ابنه أو يقتل الابن أباه ؟ !

فقال العجوز برجاء :

ـ ما كان بوسع أحد أن ينالك بأذى لو أنك . .

فقاطعه بضيق :

ـ لكنهم يزيحون ملكا مغتصبا عن عرش زائف !

ـ معذرة يا بنى فإنى لا أنطق إلا عن صدق ، وأردت القول بأنه لو أنك مارست حياة الطريق الشاقة الطاهرة لما تعرض لك أحد بسوء أو لما باليت بما يتعرضون لك به .

قام الرجل متوترا . مضى نحو باب السلاملك وجعل يرنو إلى الحديقة التى ذابت تفاصيلها فى أمواج الظلام فتبدت أشجارها كالتلال حينا وكالوحوش حينا آخر . ومن موقفه جاء صوته قائلا :

ـ يخيل إلى أنه لم يعد لى مقام هنا !

هتف العجوز بجزع :

ـ مولاى!

ـ لعل ذلك يحل الأزمة المستعصية . .

ـ لكن الأزمة لا تحل بالهرب . . .

استدار نحوه مقتربا وهو يقول :

ـ ثمة خواطر مغرية تدعونى إلى طرح المتاعب أرضا واستقبال حياة بسيطة سعيدة!

ـ حياة بسيطة سعيدة؟!

ـ لى من المال ما ييسر لى ذلك!

ـ معذرة مرة أخرى عن قول الصدق . لا مال لكم إلا ما جاءكم من المريدين!

ـ إنه مالى أمام القانون وكفى .

نظر نحوه بارتياب وسأل :

ـ أتؤمن بما تقول؟

لم يجب عن سؤاله ولكنه قال :

ـ ثمة حياة بسيطة سعيدة لا تعقيد بها ولا نزاع . .

ـ والطريق الذى خلقت له؟

لم يجب عن سؤاله أيضا ولكنه قال :

ـ فلنحب الحياة كما يحبها أكثر الناس . .

فقال بثقة أو برجاء :

ـ إنك لا تعنى ما تقول ، ولكنك تردد الأفكار التى تناقشها وأنت خال إلى نفسك . .

ـ لم لا؟ . . فلأذهب إلى مكان قصى ، إلى أوروبا كما فعلت عمتى ، ولأترك لك الطريقة فأنت خير من يقودها .

- ردد ما يناوشك به الشيطان فى نفسك . .

- لم لا يا مولاى؟!

- لقد عشت حتى اليوم عيشة الاستهتار واللذة، ولكن الأمل معقود بالعذاب الذى تبعك فى مغامراتك الليلية كالظل . .

فقال بسخرية مريرة:

- عند ذاك يهدأ جيل الأبالسة المتمردين!

- نحن فى حاجة إليهم كما أنهم فى حاجة إلينا . .

- لديهم العلم والأفكار الشيطانية التى تصورنا فى صورة نفايات سامة يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن صونا للصحة العامة . . .

فقال العجوز بإصرار:

- على ضوء ذلك يتحدد لنا هدف جديد . .

- لعلها مهمة قديس!

- ها قد بدأنا نتقارب . .

- ولكن عليه أن يقنع الناس بقداسته قبل البدء .

- بل عليه أن يقنع نفسه بقداسته قبل ذلك .

- ها نحن أولاء نحلم بالطيران ونحن غرقى فى الأوحال . .

- القديس لا يكترث للأوحال .

فتنهد الشيخ محمود من الأعماق وقال:

- فلنحب الحياة كما يحبها أكثر الناس، ولا خوف من العذاب الذى أرهقنى ظلمه فيما مضى بعد أن ثبت لى أننى جدير بها كما أنها جديرة بى .

قال الشيخ تغلب غاضبا:

- شاهدت فى حياتى حقراء لا حصر لهم ولا عد ومع ذلك فلم يمح من قلوبهم التقزز من القبيح والتهليل للحق .

رفع رأسه إلى فوق وراح يتكلم وكأنما يناجى نفسه :

- عاصفة تجتاح رأسى، أحداث تطاردنى فلا تدع لى فرصة لإنعام النظر، من أسفل يلح نداء ومن أعلى يلح نداء، وأنا ممزق القلب، كأنى مطالب بتنظيم الوجود وأنا محاصر فى ركن ضيق يهددنى الموت!

فقال الشيخ تغلب باسما :

- وصف موجز للحياة لا بأس به.

- ما أجمل أن أرمى بنفسى بين أحضان اللهو..

- استمر فى محاورة نفسك!

فهتف :

- ليتنى بلا ضمير كهذا الجيل الساخر!

- صدقنى إنه أمل لحارتنا..

- لا إيمان لهم بشىء.

- حب العلم ما هو إلا لغة إيمان جديدة.

وتردد الشيخ محمود مليا ثم سأله :

- أعرفت المدعو على عويس؟

أجاب الرجل بعد تذكر قصير :

- نعم، شاب ممتاز، قلت له مرة : إذا طعمت علمك بالحكمة فأنت خير حفيد للأكرم!

هتف الشيخ محمود فزعا :

- حفيد الأكرم؟!

- لا تنزعج فإن حفيد الأكرم الحق هو خير من يعيد سيرته، ويعكس صميم روحه..

ولزم الرجل الصمت وهو واقف على حين أطرق العجوز. سبحت الأفكار فى الصمت محمومة متلاطمة. سقطت فراشة ثملة بالضوء على لحية الرجل السوداء المدببة فهشها بعصبية فتهاوت عند قدميه وندت تنهدة بصوت مسموع، ثم تساءل الرجل:

ـ ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى يا شيخ تغلب؟

فرفع الرجل رأسه كمن يصحو بعد غفوة وقال:

ـ لا تسل عن جواب أنت خير من يعرفه!

ـ أريد أن أسمعه!

ـ كلا إن الحياة تتموج أمام بصرك، الأركان تتهاوى، أوهام تتبخر، حقائق تنقض كالقنابل، عناصر تتحلل مطالبة بتركيب جديد، أصوات جديدة تحطم جدران الخرس وترتفع، أناس يتلاحمون، قوى تنطلق من مخابئها، والنفس تطالب صاحبها باتخاذ موقف. اثبت.. اهرب.. احى.. مت.. تعقد.. تجدد.. ولكن لا حل إلا أن تخوض أمواج الظلمات وأن تشق طريقك إلى بر النور.

وقام الرجل العجوز معتمدا على عصاه، فقال الرجل:

ـ لنبق قليلا يا شيخ تغلب..

ـ لقد قلت ما عندى وقلت ما عندك.

تصافحا. مضى معه إلى باب الخروج والعجوز يقول:

ـ الليل يمضى، وقلبى يحدثنى بأنه سيتمخض عن أمور مهمة..

وبينا كان يوصله تسلل من باب السلاملك على عويس. ألقى على المكان نظرة حذرة ثم مضى إلى الديوان فتوارى وراءه فيما يلى الجدار المطل على الحارة. رجع الشيخ محمود فذهب إلى باب السلاملك متلقيا نسائم الليل. زحف الشاب نحو الباب فأغلقه بهدوء. تنبه

الشيخ إلى حركة فالتفت وراءه فرأى الشاب وهو يتجه نحوه. فذهب الرجل وقد قرأ الشر فى عينيه وسأله :

- من أين جئت؟

تقدم دون أن ينبس فسأله :

- ماذا تريد؟

قال الشاب وهو منه على بعد ذراعين :

- كدت أقتل بيد رجل من رجالك . . .

- احذر أن ترتكب حماقة . .

- وتريد أن تشهِّر بشرفى؟

- محض أوهام سخيفة . .

ولكنه وجه إليه لكمة شديدة. قبض الرجل على ذراعه قبل أن تصكه الضربة. تلاحما بعنف، الشاب يريد أن يصرعه وهو يقاومه بكل ما أوتى من قوة.

- كف وإلا دعوت رجالى . .

- سأنالك قبل أن يأتوا . .

ودفعه دفعة قوية فتراجع الرجل مترنحا ولكنه أسند ظهره إلى الجدار . .

- كف قبل فوات الفرصة.

- إنك شر يجب أن يزول.

- دعنا نتكلم!

- مكيدة جديدة؟

انقض عليه بوحشية وانهال عليه ضربا. وجعل الآخر يدفعه بقوة ولكنه لم يستطع أن يتفادى من ضربات صادقة أصابته فى صدره وكتفه. وأخذ الضعف يعتوره وتحاصره اللكمات حتى استشعر دنو الانهيار.

ـ حسبك . . أمسك . .

ولكن الآخر ضاعف له الضرب فهتف :

ـ كفاية . . . ستقتلنى . .

ـ إلى الجحيم!

فهتف متوجعا :

ـ ستقتل أباك!

فصاح به :

ـ كف عن الهذيان يا مجرم .

فقال بصوت متحشرج وقد بدا دفاعه يضعف ويتلاشى .

ـ ستقتل أباك! ألا تسمع؟ . . ستقتل أباك . . إنى أبوك!

ولما يئس من إدراكه وشعر بدنو النهاية صاح بأعلى صوته :

ـ إلىَّ . . إلىَّ . . شيخ عمار . .

فى الحال اندفع خدم من باب السلاملك . فتح الباب ودخل الشيخ عمار وبعض الرجال يهرولون . انقضوا على الشاب فقبضوا عليه وشلوا حركته . ومضى الشيخ مترنحا نحو الديوان وتهالك عليه وهو يتمتم :

ـ اقبضوا عليه . . لا تمسوه بسوء . .

أخرج منديلا وراح يجفف به دما سائلا من أنفه وفيه طارحا رأسه على المسند فى إعياء شديد . وتمتم مرة أخرى وهو يقرأ فى الوجوه غضبا أسود :

ـ لا تمسوه بسوء . . .

سأله الشيخ عمار بصوت متهدج :

ـ ماذا نفعل به يا مولاى؟

- صبرا!

- أندعو الشرطة؟

- كلا . .

مرت فترة لم يسمع فيها إلا تردد الأنفاس، وفى أثناء ذلك جىء للشيخ بقارورة ورد فغسل وجهه. اعتدل فى جلسته متأوها. التفت إلى رجاله قائلا:

- اتركوه!

فرفعوا أيديهم عنه فى ذهول، فقال:

- تفضلوا بالذهاب.

لم يتحرك أحد منهم فقال بلهجة آمرة:

- اذهبوا!

غادر الرجال البهو ذاهلين. تردد الشيخ عمار ثم ذهب فى أثرهم. وقف الشاب خافض الرأس لا يفهم شيئا. وقال الشيخ:

- تذكر أنك واقع تحت رحمتى ولم أمسك بسوء . .

وجعل يتحسس بعض مواضع تؤلمه ثم قال:

- عار عليك أن تستغل قوتك فى الاعتداء على رجل فى مثل سنى، يجب أن تخجل من نفسك . .

فقال الشاب دون أن يرفع رأسه:

- إذا كنت تدبر أمرا فنفذه بلا إبطاء لا ضرورة له.

فسأله بعد وقفة قصيرة:

- ألم تسمع ما قلت لك؟

لم يجب ولم يفهم.

- قلت لك . . ستقتل أباك . .

فرفع إليه عينيه دون أن ينبس .

ـ لم تصغ إلى . كدت تقضى على أبيك ، ألا تدرك معنى لقولى؟

حرك رأسه فى حيرة ، فقال الرجل فى هدوء واستسلام :

ـ ذلك أنى أبوك وأنك ابنى !

انتصبت قامته فجأة واتسعت عيناه وتساءل :

ـ ماذا تقصد؟ !

ـ ليس لقولى إلا معنى واحد وهو أنى أبوك وأنك ابنى ، لقد رميتنى بحقائق عسيرة الهضم وها أنا ذا أرد التحية إليك ، ولو عاصرنا أبو العلاء لعثرت على نفسك فى مخطوطة . أراك لا تصدق؟ حسن ، سنبعث فى طلب الشخص الوحيد القادر على إقناعك . . ثم علينا بعد ذلك أن نوطن النفس على مواجهة الحقائق . .

٩

كان الشيخ يجلس على الديوان وقد ضمد جراحاته . وعلى كنبة قبالته جلست زينب وعلى . بدت نظراتهم ثقيلة بما حملت من حقائق وما تخايل لها من عواقب . وقال الشيخ :

ـ ها هى ذى الحقيقة عارية !

ثم ردد عينيه بينهما حتى ثبتهما على الشاب وقال :

ـ عرفناها معا فى ليلة واحدة ، ها هو ذا الماضى يعانق الحاضر فيكونان معا كلا لا يتجزأ .

وابتسم فى أسى ثم مضى يقول مخاطبا الشاب أيضا :

ـ لقد وزعت على الناس نشرة تكشف عن أعجب الحقائق عن جدك

وبيته الكبير وأسرته، ولكن فاتك أطرف ما فيها وهو هذا الفصل الأخير . .

نظر الشاب نحو أمه فوجدها تجفف عينيها فتمتم :

- الفصل الأخير؟! . . أى حقيقة؟! . . لن أعجب بعد الليلة لو رأى الناس بآذانهم وسمعوا بأعينهم!

فقال الشيخ :

- هكذا دار رأسى أيضا بلا توقف، ولكن علينا أن نحسم أمرنا فلم يبق على الفجر إلا ساعة . .

قالت زينب :

- من حقنا أن نُمْهَل لمزيد من التفكير .

فقال الشيخ :

- لا وقت للانتظار، فالحارة مهددة بالانفجار بين ساعة وأخرى .

- والعمل؟

- علينا أن نختار سبيلا من اثنين، فإما أن نهرب بأموالنا أو بمعنى آخر بأموال الناس، وإما أن نبقى لنواجه الحقيقة ونتحمل عواقبها . .

تنهدت زينب بصوت مسموع وقالت :

- حدثنا برأيك .

فنظر الرجل إلى ابنه وسأله :

- أود أن أسمع رأيك أولا .

انتفض الشاب كمن يستيقظ من نوم وقال :

- رأيى! . . أمهلنى حتى أستعيد توازنى .

- لا وقت لذلك، دعنى أساعدك، ماذا أردت أنت وزملاؤك؟

تفكر مليا ثم قال :

ـ أردنا الاحتكام إلى الحقائق وإزهاق الأباطيل والخرافات. مؤملين من وراء ذلك أن ترد أموال الناس إليهم وأن تنفق فى سبيلهم وأن ترفع عن كواهلهم الوصاية والسيطرة..

ـ هذا حسن ولكنه ليس بكل شىء، الحقيقة لا تتجزأ، وإن يكن ثمة خير فى أن يعرف الناس الأكرم على حقيقته فمن الخير أيضا أن يعرفونا على حقيقتنا. لا نستطيع أن نبدأ من جديد ونحن نتستر على آثامنا الماضية، على الاعتراف أن يكون كاملا وصريحا ليكون التفكير كاملا وصريحا، ولنبدأ حياة نقية بالمعنى الحقيقى.

تساءلت زينب بإشفاق:

ـ ماذا تقصد؟

فأجاب بإصرار:

ـ يخيل إلىّ أننى لن أتورع عن شىء!

ـ وأى عواقب تتوقع؟

ـ لا أدرى، قد يعيدنا ذلك إلى مجد الأكرم وقد يردنا إلى تشرده!

ـ زدنى تفصيلا!

ـ إذا اعترفت بكل شىء، إذا بلغت الغاية فى الأمانة. فلن يتردد على محاربتى أخلص الناس لى اليوم وهم المنتفعون بأموالنا. أما المريدون فسيقعون حيارى بين إيمانهم القديم والحقائق الجديدة، ولا يبعد أن ينقسموا بين مرتد عنى ومؤيد لى حتى النهاية..

ـ يا لها من صورة غامضة!

ـ رجم بالغيب أن أحدس المصير.

ـ هى احتمالات وخواطر ولكن ما الذى تضمره فى قلبك؟

التفت نحو الشاب وهو يقول :

- أود الآن أن أسمع رأيك؟

لم ينبس الشاب مستغرقا فى تفكيره .

- إنك تبدو شاحب اللون يا بنى؟

- ليس هذا مما يهم . .

- لابد من الإدلاء برأيك .

- أظننى أفصحت عنه فيما يخصنى .

- ثمة ما يخصك ولا يقل أهمية عن ذلك ، إذ إنه يتعلق بكرامتك وسمعتك!

فتمتم بهدوء :

- يخيل إلى . .

وانطبقت شفتاه فتساءل الشيخ :

- يخيل إليك . . ؟

فقال بحدة عصبية :

- أننى لن أتورع عن شىء .

- أتدرك ماذا يعنى ذلك؟

- أجل .

- أنت شجاع ، وسوف يتقرر مصيرنا على ضوء ما يرى الناس فينا .

- ليكن ما يراه الناس .

- سأعيد إليك اسمك ، أما الثروة فستعود إلى أصحابها ، ستجيئنا بكتبك ولن تجد عندنا إلا كتبا!

- ليكن . .

وتساءلت زينب بذهول :

ـ أيمكنك مواجهة الناس بذلك؟
ـ سأدعوهم إلى البيت الكبير صباح الغد .
ـ ألا يلزمك وقت للمزيد من التفكير؟
ـ لا تدرين كم فكرت!
وابتسم وهو يرنو إليها بنظرة ثقيلة :
ـ لم أكف عن التفكير لحظة واحدة مذ انهالت على رأسى المطارق!
ثم وهو يتنهد :
ـ وكان على أن أختار : فإما الدعارة وإما القداسة .
وابتسم فى هدوء ثم استطرد :
ـ وقد اخترت سبيلى ، فاضت من قلبى قرارات عنيدة غير متوقعة كضربات المطارق المنهالة على رأسى ، اكتسحت نداءات الدعارة اللزجة اللينة ، فرفضت الهزيمة ومججت الهناء السهل ، والظاهر أن إيمانى بجوهر جدى كان أكبر من إيمانى بمعجزاته .
وردد بصره بينهما وهو يقول :
ـ فلنستمتع بآخر هدوء يتاح لنا!
فقال على :
ـ أمامنا حياة عسيرة .
ـ ولكنك تود مواجهتها؟
فقال بتصميم :
ـ بلا تردد .
ـ حسن ، لقد تعلمت منك أشياء وأود أن تتعلم منى أشياء!
فقالت زينب :
ـ ولكن النزاع لن ينتهى فى حارتنا .

فقال الشيخ :

ـ نعم، ولكننا سنكون فى الموقع الأفضل .

وتفكر مليا ثم قال :

ـ لا شك فى أن جدنا اعترضته المتاعب نفسها وهو يتحول من الجريمة إلى الولاية!

وقام فى نشاط حى وقال :

ـ لقد أورثنا مَثَلا لا يجوز أن يُنسى . .

ودنا من مدخل الحديقة المستكنة فى سكينة الفجر وقال :

ـ تلك كانت المعجزة .

حارة العشاق

تربع على الكنبة فى هدوء متوثب. تابعها بعينيه وهى ذاهبة تحمل صينية القهوة. تابعها وهى عائدة بجسمها البض ووجهها الممتلئ البدرى. جميلة فاتنة! وتزداد مع الأيام نضجا وفتنة. ها هى ذى تلقى نظرة على الحارة من النافذة الوحيدة فى حجرة الجلوس. وها هى ذى تجلس إلى جانبه على الكنبة الوسطى. وها هى ذى الغبطة تسيل من نظرتها وهى تقول:

ـ شكرا للترقية!

وابتسمت بحبور ثم قالت:

ـ بفضلها أهنأ بمجالستك كل عصر.

تقلصت بعض عضلاته تحت جلبابه الأبيض الفضفاض، وغمغم بألفاظ غير واضحة. جعلت تلحظه بعينيها الصافيتين. ستكتشف عاجلا أو آجلا وجومه. لعلها اكتشفته. هى شديدة الحساسية فطنة ولكنها فى نفس الوقت مرنة وواسعة الحيلة. كم يحبها. لم يتوقف عن حبها بعد الزواج. لا يتصور الحياة بدونها.

قالت بنعومة:

ـ لمناسبة ما ذكرتنى صاحبة العمارة بأننا نقيم فى هذه الشقة منذ خمس سنوات..

فصدق على قولها متمتما:

ـ أجل، خمس سنوات.

ـ خمس سنوات حقا؟! هل مرت خمس سنوات حقا؟..

ـ خمس سنوات مرت على زواجنا، العمر يجرى جريا يا هنية.

فربتت ظهر كتفه وقالت بحنان:

ـ يبدو أنه يطير طيرانا فى أحضان الحب السعيد.

ترى هل اكتشفت وجومه؟ إنه على دراية بتسللها الناعم، قال:

ـ أجل فى أحضان الحب يطير طيرانا.

فامتلأت عيناها بالحنان وقالت:

ـ وطيلة النهار جعلت أتذكر وأغنى لنفسى..

ـ ثمة ذكريات لا تنسى.

ـ قبيل الخطوبة وأنت تخالسنى النظر من مجلسك فى القهوة.

فخفض صوته وهو يقول:

ـ الحب جنون!

ـ وفى كل ركن فى هذه الشقة يستطيع ألف دليل أن يقوم على حبنا..

ـ ألف دليل ودليل.

ـ هكذا مرت السنون الخمس فلم نشعر بمرورها.

ـ أجل..

ـ على الرغم من أن متاعبك فيها لا يمكن أن تنسى.

فغلبته عواطف مكبوتة فقال:

ـ كانت متاعب سعيدة.

ـ بل كانت السعادة أقوى من المتاعب!

تنهد. تجلت فى عينيه نظرة حالمة. قال:

ـ تلك الأيام! كنت موظف أرشيف خارج الهيئة، أعمل عملا متواصلا من طلعة الصبح حتى أول الليل. حتى الغداء كنت أتناوله تحت أرفف الأرشيف، فقير كادح وزوج عاشق. حتى النسل أجلته لحين تتحسن الحال، لا وقت للتفكير، لا وقت للنظر، عمل عمل عمل. وأعود إليك مرهقا ولكن بفؤاد حي مشتاق، أجد الحمام مبخرا فأغتسل وأرتدى جلبابا مزهرا، نتبادل الحديث، نتناول العشاء، نسعد بالحب، ننام النوم العميق، لا أفكار ولا كدر، ثقة لا حد لها بكل شيء، بك وبنفسى وبالله، وإيمان لا حد له بك وبنفسى وبالله، كل شيء ثابت الأركان مدعم البنيان.

ـ أيام شاقة وسعيدة يا عبد الله.

ـ جرى بلا انقطاع وراء لقمة العيش، طمأنينة شاملة، حب يتبادل بقوة تضاهى قوة دوران الأرض!

أزاحت خصلة سوداء تهدلت فوق عينها وقالت وهى تضحك فى دلال:

ـ ولكننا لم نكن نهنأ بجلسة سعيدة كهذه الجلسة فى العصارى الطيبة.

فقال بحزن لم يعد يستطيع مداراته:

ـ فقد منَّ الله على بالترقية.

ـ أصبحت مراجع وحدة ينتهى عمله فى تمام الثانية بعد الظهر مثل كبار الموظفين.

ـ وتهيأ لى من الفراغ ما لم أكن أحلم به.

ربتت خده وقالت بارتياب:

ـ مالك؟!

ـ لا شيء بى.

ـ خيل إلىّ أنك لست كعادتك .

ابتسم . ابتسم وهو يرنو إلى بشرتها الصافية . اعترف بأنه لا شيء يمارس سيطرته على شيء كما تمارس سيطرتها عليه . عادت تسأله :

ـ لست سعيدا بالترقية والفراغ ؟

ـ الحق أن الفراغ خلقنى من جديد .

ـ وأنا كذلك .

ـ فقد رأيتك فى النهار طويلا بعد أن لم أكن أراك فيه إلا خطفا !

ضحكت ضحكة ناعمة منغومة فواصل حديثه :

ـ ورأيت حارتنا فى الضوء ، عرفت المقهى ، توثقت علاقتى بالجيران وبخاصة الإمام والمدرس وشيخ الحارة .

ـ هكذا الفراغ راحة ونعمة وتعارف .

ـ وعرفت نفسى بعد أن كانت حواسى مشدودة دائما إلى الخارج .

ـ يالها من مكاسب لا تقدر بمال .

ـ رأيت أهل حارتنا ، لم أكن أتصور أنهم بهذه الكثرة .

ـ ما أعجب ذلك وأجمله !

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ ومنهم أناس أثاروا قلقى !

ـ لم كفى الله الشر ؟ !

ـ يتخذون فى ركن من المقهى مجلسهم ، عصابة من الشبان ، يتبادلون المزاح بأصوات مزعجة ، لا يرحمون كبيرا ولا صغيرا من مزاحهم ، ويتهجمون على الأعراض بلا حياء .

ـ هكذا الشبان فى كل زمان ومكان .

ـ ألا يزعجك ذلك ياهنية ؟

ـ لا أحب لك أن تنزعج أنت !

ـ ولا يتركون فتاة دون غمز ، حتى السيدات المصونات ، حتى خيل إلىّ أنى أقيم فى عالم من الدعارة والانحلال .

ـ لا تستسلم للأوهام السخيفة !

قام كأنما ضاق بمجلسه . وقف وراء النافذة دقيقة . رجع إلى وسط الحجرة ووقف مستندا إلى الخوان . قال بحنق :

ـ خيل إلىّ مرة أن أحدهم رمانى بنظرة لم أرتح لها !

نضب المرح من صفحة وجهها وتساءلت :

ـ أى نظرة؟ !

ـ نظرة ماكرة ذات معنى .

ـ أى معنى؟

ـ استفزنى غضب وهممت بالقتال !

ـ يا لطف الله !

ـ وتنغص على صفوى فلم أسترده بعد ذلك .

قالت بقلق واضح :

ـ إنك تبالغ يا عبد الله .

ـ الحق أنى عانيت تجربة جديدة كل الجدة وهى الشَك !

هتفت باستياء :

ـ الشك؟ !

ـ كمن صحا عقب نوم ثقيل على لسع عود ثقاب مشتعل .

قالت بامتعاض وغضب .

ـ أطلعنى على أفكارك أكثر .

ـ قلت إنه الشك وكفى .

فصاحت بغضب :

ـ لا أصدق أننى أتلقى منك إهانة صريحة!

ـ إنى أسألك المعونة.

ـ غير ما بنفسك قبل أن يفسد كل شىء.

فقال دون اكتراث لتحذيرها:

ـ إنك تخرجين كل يوم للتسوق.

ـ لست فى حاجة إلى من يذكرنى بحياتى اليومية.

فقال بخشونة:

ـ وتذهبين إلى الفرن لابتياع الخبز!

ـ كما أذهب إلى البدال والقصاب والكواء.

فقال بحنق:

ـ ولكن الفران يستقبلك استقبالا عجيبا، يهتف دون مناسبة: أهلا أهلا. ويقبل عليك كأنه صديق حميم.

ـ عبد الله!

ـ إنى أصف ما رأته عيناى.

ـ أكنت تتجسس علىّ؟

ـ الشك له أسلوب لا مفر منه.

ـ ولو بلغ الوقاحة؟!

ـ ولو!

ـ كيف خفيت عن عينى حقيقتك طيلة ذلك العمر؟

ـ كما خفيت عن عينى حقيقة أفظع!

ـ اقطع لسانك واخرس.

ـ رأيته وهو يكاد يأخذك فى حضنه.

صاحت به:

- لا أسمح لك .

- رأيت ذلك بعينى كما رأيته قبل ذلك فى عينى الشاب بالقهوة!

- لن أسمح لك بإهانتى!

- هل لديك دفاع؟

- لست متهمة!

- هل لديك تفسير؟

- أنت مجنون .

- لا مفر من المواجهة .

- كم أنك كريه أعمى .

- الشتائم غير مجدية .

- إنى أشرف من أفكارك الوضيعة .

- هاتى دفاعك .

فصاحت بكبرياء وهى تثب قائمة فى غضب جنونى .

- لا تردد كلمة الدفاع ، لا أسمح لك .

- يا للشيطان! . . هذا يعنى أنك تعترفين .

- إنى ذاهبة ، بقائى مع شخص مثلك مستحيل .

ضرب الخوان بقبضته وهو يرتجف غضبا وصاح :

- تكلمى!

- إنى ذاهبة .

غادرت الحجرة فصاح فى أعقابها :

-- تكلمى!

ثم ضرب الخوان بقبضته مرة أخرى وصاح بجنون :

- أنت طالق!

٢

جلس فى حجرة الجلوس وحيدا. لم يحلق ذقنه ولم يمشط شعره. زائغ البصر.

- إنى وحيد، وحر، واليأس إحدى الراحتين.

وصمت مليا ثم قال:

- يجب أن أعترف بأننى غير سعيد وبأننى لا أجد لحياتى معنى.

عاد إلى الصمت مرة أخرى ثم راح يقول:

- ويجب أن أعترف أيضا بأننى أحبها، وبأننى أكرهها.

أطبق شفتيه دقيقة ثم قال:

- طلقتها لأنه من غير الجائز أن أبقى على زوجة خائنة، أما الحب فقلعة منيعة مستقلة - بذاتها وأبراجها - عن الشك والسلوك.

وقام ليذرع الحجرة ذهابا وإيابا. دق جرس الباب فجأة. فتح الباب فدخل شيخ بدين قصير ذو لحية سوداء. تصافحا، قاده إلى الكنبة وهو يقول:

- خطوة عزيزة ياشيخ مروان عبد النبى.

جلس الرجل وهو يقول:

- أوحشتنا يارجل!

- أهلا بك، وكيف الإخوان؟!

- القهوة كلها مشتاقة إليكْ.

- علم الله أنى مشتاق إليكم كذلك.

فرماه الشيخ بنظرة ارتياب وهو يقول باسما :

ـ لو أنك مشتاق حقا لزرتنا !

ـ الحزن يطوينا على أنفسنا .

ـ ولكنه يتبخر عادة بين الإخوان .

ـ لم تنفتح نفسى لشىء بعد .

ـ كيف؟ ولم؟

ـ أنت أدرى !

ـ خطر لى أنه من المفيد أن نتعاون على محاربة ذلك العدو المدعو الحزن .

ـ أنت إمام وصديق وإنسان .

ـ إنه عدو خطير ، له كل يوم فريسة ، ولا يجوز أن نلقاه متفرقين .

دعاه الشيخ إلى الجلوس إلى جانبه . ربت منكبه وقال مستطردا :

ـ وما دام سببه معروفا ، فالاهتداء إلى سبيل الشفاء ميسور !

أطرق عبد الله مليا ثم قال باستحياء :

ـ كانت تجربة قاسية عاصفة ، وليس الشفاء منها بالأمر الميسور !

ـ إنك صادق فى تعبيرك ، ولكن لا يجوز أن تنسى أمرين مهمين .

وسكت ليخلق جوا مناسبا لسماع نصائحه ، ثم قال :

ـ لا تنس أن الإيمان بالله هو الملاذ الأخير من جميع الأحزان .

وعاد إلى السكوت مرة أخرى ، ثم قال :

ـ ولا تنس أن تتثبت من حقيقة التجربة التى عصفت بك !

ـ لقد رأيت بعينى رأسى !

ـ واقعة الفران؟

ـ أجل ، وقبل ذلك نظرة الشاب المستهتر إلى !

ـ دعنى أصارحك بأننى لم أشاركك الاقتناع فيما اقتنعت به!
ـ لقد بهتت فلم تستطع الدفاع عن نفسها!
ـ ولا تلك بحجة تشرع ضدها، فللمرأة كبرياؤها!
ـ إنى مطمئن إلى الإجراء الذى اتخذته.
ـ ولكنك قضيت على نفسك بالسًّجن كأنما طلقت الدنيا فى الوقت نفسه.
ـ سوف يدركنى النسيان عاجلا أو آجلا.
فابتسم الإمام وقال بهدوء وثقة:
ـ إنى رجل من رجال الله، خادم بيت من بيوته، أعرف حارتنا وأحوالها ما ظهر منها وما خفى، أتوكل على الله فى كل فكر أو عمل، ولا غرض لى فى الدنيا إلا الخير، وأبعد شىء عن خاطرى أن أسعى إلى رد زوجة خائنة إلى عصمة رجل فاضل مثلك.
غض عبد الله بصره ليدارى نظرة رجاء لاحت فى عينيه وتمتم:
ـ لا شك عندى فى ذلك كله يا شيخ مروان.
ـ يا صديقى عبد الله، لقد قرأت فى وجهك رسالة، لا أجزم بصحة ما قرأت فصارحنى: أيتعذر عليك نسيانها؟
ـ الخيانة؟!
ـ الزوجة!
فقال عابسا:
ـ كل شىء رهن بوقته.
ـ الحب ككل شىء يجرى مجراه بأمر الله، فلعلك تحبها؟!
ـ لا أهمية لذلك.
ـ صدقنى يا صديقى عبد الله إذا قلت لك إن زوجتك بريئة!

ـ بريئة؟!

ـ أجل بريئة مما رميتها به.

فسأله باهتمام بيِّن:

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لا أدرى من أين أبدأ. أأقول لك إن لرجال الله خواطرهم القلبية التى تفوق فى قدرتها براهين العقول؟! ولكنى أخاف ألا يكون إيمانك بالقوة التى تتخيلها، كثيرون يعتقدون أنهم مؤمنون ثم تراهم ينهارون لدى أول تجربة. المؤمن الحقيقى يا عبد الله يحرك الجبل ويزلزل الحياة ويقهر الموت.

فتنهد عبد الله قائلا:

ـ لا ينقصنى الإيمان يا شيخ مروان.

ـ ألم تعاشرها خمس سنوات كاملة بل يزيد؟

ـ لا يمنع ذلك من وقوع شر.

ـ حدثنى عن قلبك لا عن الوقائع الخارجية!

ـ لا أنكر أنى اطمأننت إليها الاطمئنان كله.

ـ ألم يتسلل إليك الشك أبدا؟

ـ نعم، لم يتسلل.

ثم مستدركا بعجلة:

ـ لم يكن لدى وقت للشك.

ـ لا أهمية للوقت فى ذلك.

ـ بل هو كل شىء يا شيخ مروان؛ فأنا لم أنتبه إلى ما يجرى حولى إلا من خلال الفراغ الذى أتيح لى عقب الترقية.

ـ ألا حظت تغيرا فى معاملتها لك؟

فتمهل قليلا ثم قال :

ـ لا أظن . .

ـ يا صديقى ، إنى أعرف حارتنا ، رجلا رجلا وامرأة امرأة وصبيا صبيا ، لا يغيب عنى شىء من أسرارها ، وأشهد الله أننى لم أعرف امرأة تتمتع ببعض الخصال الحميدة التى تحظى بها امرأتك !

فقال متجهما :

ـ السلوك الحقيقى سر من الأسرار .

ـ صدقت ولكن ندر أن استطاع خاطئ التستر على خطيئته إلى الأبد .

ـ لقد رأيت ولا يمكن الاستهانة بما رأيت .

ـ دعنى أحدثك عن الشاب الذى هيجتك نظرته . لقد حققت بنفسى مع الشبان الذين يشاركوننا الجلوس فى المقهى فثبت لى على وجه اليقين ألا أحد فيهم يضمر لك سوء ظن أو تقدير ، فلعلك توهمت رؤية ما لا وجود له .

ـ لا يمكن أن نشك فى حواسنا .

ـ حواسنا؟! عليها اللعنة ، تلك المرايا المشوهة التى لم تخلق إلا لتشهد بكذبها بصدق حدس القلب .

ـ ولكننا نحيا بها يا شيخ مروان .

ـ نحن لا نحيا حقا حتى يمتلئ قلبنا بالإيمان .

فقال بمرارة :

ـ كأنى أيضا لم أر الفران وهو يفتح لها ذراعيه !

فابتسم الشيخ مروان وقال :

ـ صدقنى فقد ظلمته ورميته بما لا يجرى له فى خيال .

ـ لست أعمى .

ـ إنه رجل مسكين ، وزوجته تشاركه فى عمله ساعة بساعة ، وهى تستقبل الزبائن معه !

ـ كلا !

ـ هو الحق بالتمام والكمال !

أطرق عبد الله محاصرا فى ركن مسدود فاستطرد الشيخ :

ـ وإلى ذلك فهو عجوز دميم يكاد يقعده الكبر !

قام عبد الله فى تأثر واضطراب وهو يقول :

ـ لا تجرفنى إلى هاوية يا شيخ مروان !

ـ معاذ الله ، إنى لا أقدم على عمل قبل أن أستخير الله ذا الجلال ، وكم من مرة زارت مطلقتك الضريح ورجتنى أن أدعو لك بالصحة والفلاح !

ـ حسبك .

ـ لعنة الله على الغضب ، لعنة الله على الحواس !

تراجع عبد الله إلى الكنبة فى الجناح الأيسر للحجرة وتهالك عليها مغمض العينين ، فقال الشيخ :

ـ أصلح خطأك ، كفر عنه ، استرد السعادة التى سلبها الشيطان ، تخلص من وحدتك الغارقة فى الحزن .

وتريث قليلا ثم قال :

ـ ولكن عليك أن تغير حياتك .

فقال عبد الله بتأثر شديد !

ـ دعنى آخذ أنفاسى !

ـ إنك فى صميم قلبك ترحب بجميع الحقائق التى كشفتها لك ، لا

تنكر ذلك، إنك تحبها، ولا غنى لك عنها، إنك تنتظر اللحظة التى أدعوك فيها إلى ردها إلى عصمتك.

فتأوه الآخر قائلا:

- اللهم عفوك ورحمتك...

- ولكن عليك أن تغير حياتك، فبادر إلى الإنجاب بعد أن منّ الله عليك باليسر، وتردد على الزاوية فى أوقات الصلاة المتاحة، ولا يفوتك درس من دروسى الدينية..

فقال عبد الله بحماس:

- بإذن الله لن يفوتنى شىء من ذلك، والحق أنى لم أكن مقصرا ولكن فترة الاستغراق فى العمل أورثتنى عادات سيئة لا يتحرر منها إلا صادق العزم.

- فترة ذميمة!

فتردد عبد الله قليلا ثم قال:

- ولكننى كنت قويا وسعيدا!

- تلك جنة الحيوان، أما الإيمان الحقيقى فلا تكمل أسبابه إلا بالتأمل والصلاة والدرس..

- سمعا وطاعة!

- آن لك أن تؤمن كما يؤمن الإنسان الكامل، وسوف تعرف الروح وبهجتها، ومعنى الحياة الزوجية ومسراتها الحقيقية، وستعرف إلى ذلك كله كيف تهزم الشيطان إذا تصدى لك بلعبة من ألاعيبه!

انتقل عبد الله إلى جانب الشيخ. قبل جبينه، ثم قال بامتنان:

- ربنا يكرمك يا شيخ مروان، لقد انتشلتنى من الظلمات وفتحت لى أبواب الهدى والسعادة..

٣

دخلت حجرة الجلوس وهى تمشط شعرها . تبدى وجهها موردا رائقا بعد الحمام . نظرت نحوه وهو واقف فى جلبابه وراء النافذة وتساءلت :

ـ ألا تستعد لحضور الدرس فى الزاوية؟

لم يلتفت نحوها . لعله لم يسمعها . جلست على الكنبة وما زالت تمشط شعرها :

ـ أزف ميعاد الدرس يا عبد الله .

أجاب باقتضاب :

ـ لن أذهب .

حدجت ظهره بنظرة متسائلة ثم قالت بدهشة :

ـ لم تتخلف عن درس العصر مرة واحدة طوال العام الماضى .

غادر موقفه إلى الكنبة فى الجناح الأيمن وجلس وهو يقول فى فتور .

ـ لن أذهب .

ـ مالك ؟!

ـ لا شىء .

جمعت شعرها فى ضفيرة واحدة طويلة مليئة كالغصن الريان وهى تتساءل :

ـ هل ثمة شىء ضايقك؟

فأجاب على غير توقع منها :

ـ بل أشياء .
تيقظت تماما فى قلق واضح وسألته :
ـ ماذا هنالك ؟
فقال بامتعاض ولكن بتهيب :
ـ ذلك الشيخ !
وأكمل متجنبا نظرتها المستطلعة :
ـ أصبح مضجرا !
ـ الشيخ مروان؟ !
ـ نعم .
ـ إنه يكاد يستأثر بأوقات فراغك!
ـ ثبت لى أنه رجل مضجر !
ـ حدث بينكما شىء؟
ـ يعيد ما يقول ويقول ما يعيد، بطريقة رجل يحفظ كلمات معادة عن ظهر قلب، كالببغاء، كالآلة، ودائما بلا روح .
ـ شد ما تحمست له يا عبد الله .
ـ لا أنكر أننى كنت مبهورا به، ولكنه مضى يتكشف لى على حقيقته . قاومت الملل شهورا، انتظرت عبثا أن يقول شيئا جديدا، ولكن لا جديد، رجل يؤدى وظيفته بلا روح، ينادى على بضاعته كبياع البطاطة .
ـ متى اكتشفت ذلك؟
فقال بنبرة لم تخل من حدة :
ـ منذ زمن قصير، ولكن ليس من اليسير أن نجازف بإنكار ما تعودنا الإيمان به!
بهتت هنية . صرخ الذهول فى عينيها . قالت وهى تضبط انفعالاتها :

ـ ليكن، لا تذهب إلى الدرس إن يكن ذلك يضـايقك، وعلى أي حال فصداقتكما أكبر من الدرس وأبقى . .

فقال بمرارة :

ـ هو ليس فى المقهى بخير منه فى الزاوية !

ـ رباه كيف أصدق أذنى؟ !

ـ حقا؟ !

ـ عبد الله لا تنس أفضاله علينا، من أجلها سمينا وليدنا باسمه، ولن تنكر أنك طالما تغنيت بصداقته وسجاياه .

نفخ قائلا بوجه عابس :

ـ لم يعد لى به ثقة ألبتة . .

ـ يا ألطاف الله ! . .

ـ على أى حال كان صديقى أنا لا صديقك أنت !

ـ ولكنه صـاحب فـضلٍ على كلينا، فـهـو الذى جـمـع شـملنا من جديد . .

ـ وتبين لى بعد ذلك أنه غير جدير بالمركز الذى يشغله !

ـ بالله كيف؟

ـ كنت أضيـق بعـم مـراد عبـد القـوى شيخ الحارة إذا احتد عليه فى مناقشـة ما، وكان الشـيخ مـروان بـدوره يتهم شيخ الحارة بأنه يعمل مـرشدا للمباحث، ولكنى بت أومن بصدق فراسة عم مراد !

قالت هنية بحزن واضح :

ـ لن أناقشك، ولكن فسر ما غمض علىَّ من أمره .

فصمت قليلا ليرتب أفكاره، ثم قال :

ـ لم تتكشف الحقيقة لى دفعة واحدة، ولكنها جاءت كنقاط الماء التى تتجمع رويدا لتصنع فى النهاية بركة آسنة!

ـ أود أن أعرف كل شىء.

ـ حسن. أول ما نفرنى منه تهالكه على تصيد الدعوات إلى ولائم التجار بالحارة!

ابتسمت هنية ابتسامة فاترة، فقال بحنق:

ـ اتضح لى أنه شره، وأنه فى سبيل إشباع شراهته لا يتورع عن التودد المهين . . .

ـ خصال لو نظرت إليها بعين غير غاضبة لأمكن أن تمر بها مرور الكرام!

فقال بسخرية مريرة:

ـ ما أجمل أن يسعد الإنسان بمحام مقاتل مثلك!

ـ عبد الله . . . ما هذه النبرة؟!

ـ آلمتك؟

ـ إنها تذكرنى . .

وأطبقت شفتيها دون أن تكمل كلامها فتساءل:

ـ بم تذكرك؟

ولكنها تجاهلت سؤاله قائلة:

ـ لكل إنسان عيوبه!

ـ ليس الإمام كبقية الناس، وقد قال شيخ الحارة مرة إنه عرف من الأئمة أناسا فوق مستوى البشر!

ـ يمكن أن تقبله كإنسان عادى!

فقال بحدة:

- ومرة ضبطته وهو يقرص الزهر فى لعبة النرد، الغشاش!

غمغمت بإشفاق:

- لا تحكم عليه من خلال لعبة تسلية!

- الخلق ينعكس على لهونا كما ينعكس على جدنا!

تنهدت ولم تدر ماذا تقول فتساءل بحدة:

- ثم ألا تذكرين كيف عاقب خادمته؟!

- قيل إنها سرقت.

- أيبرر ذلك انهياله عليها بالضرب وطردها بوحشية؟ خيل إلى وقتذاك أننى أرى وحشا ينقض على فريسته!

صمتت تماما وراحت تعبث بضفيرتها بقلق بين. وضحك هو ضحكة ساخرة وقال:

- وكنت لمحت أشياء اعتَدْتُها فى وقتها أوهاما تافهة، فلما تبين لى من أمره ما تبين عدت إليها بعين جديدة انحسرت عنها غشاوة التضليل..

تجلت فى عينيها نظرة متسائلة فقال:

- تذكرت أننى رأيت عينيه أكثر من مرة وهما يتابعان نساء حارتنا باهتمام غريب!

هتفت بانزعاج:

- كلا!

- ألا تصدقين، أم أنك لا تريدين أن تصدقى؟

- ماذا تعنى؟

- لم أعد أشك فى أنه كان يطارد نساء حارتنا بعينين فاسقتين!

- يا رب عفوك ورحمتك!

ـ إنه خدعة كبرى وزنديق خطير!

ـ رحماك اللهم!

ـ رحماك يا هنية، لقد غرقت عاما فى بحر من العمى والضلال!

ـ حسبك، صادق من تشاء واهجر من تشاء.

فهتف متجهما بنبرة صارمة:

ـ ثمة أشياء لا يمكن أن تمر دون حساب!

ـ ماذا تعنى؟

ـ آن لى أن أصارحك بما فى نفسى..

ـ هذا ما ناشدتك الله أن تفعله.

ـ لنعد إلى حادث شهده بئر السلم بعمارتنا؟!

ـ عم تتحدَّث؟

فقال بصوت ممزق:

ـ كان ذلك منذ أشهر مضت. رجعت ذات يوم من مشوار إلى عمارتنا وكنت أنا جالسا فى المقهى، أردت اللحاق بك لسبب لا أذكره الآن، صادف دخولك خروج الشيخ من شقته، رأيتكما فى بئر السلم، خيل إلى..

صرخت هنية:

ـ ماذا تقصد؟

ـ رأيته يمد يده..

قاطعته بغضب جنونى:

ـ ما من مرة قابلنى حتى مد يده إلى رأس الطفل ليباركه، وقد فعل ذلك أمام عينيك مرارا..

ـ خيل إلى أن يده كانت تبارك صدرك!

فصرخت ثائرة:

- يا لك من مجنون قذر!

وهو يضحك بجنون:

- ولكن وقتها كذبت عينىً..

- وقح.. وقح.. وقح...

- استردت الصورة حياتها الحقيقية على ضوء ما تكشف لى بعد ذلك.

- اقطع لسانك يا مجنون..

- أدركت أننى كنت أعمى لا مجنونا، وأدركت لِمَ سعى للإصلاح بيننا، وأدركت كم كنت لعبة بلهاء فى يديه.

انتترت قائمة وهى تصرخ:

- أنت وحش، حيوان، مجنون، لن أبقى فى بيتك لحظة أخرى..

وغادرت حجرة الجلوس وهى تنتفض غضبا. ضرب هو الأرض بقدمه بعنف وصاح وراءها.

- فى داهية.. ألف داهية وأنت طالق!

٤

عاد الصمت إلى البيت. صمت جاف نفاث للقلق. وطيلة الوقت ذرع الحجرة من الكنبة إلى الكنبة وهو يضحك بجنون. اختفت آهات الطفل بشتى درجاتها المنغومة وأنواعها الصوتية الملونة بأطياف السخط والرضا، ولكن لم يبرح مخيلته جسمه الضئيل البنى المطروح على ظهره

وأطرافه الأربعة الصاعدة تتلاعب فى الهواء عارضة أصابعه الصغيرة الدقيقة كالنقوش البارزة. وجعل يقول:

- تجنب الوحشة، فهى أنسب جو لتقطير الحزن والأسى!

وذرع الحجرة مرتين ثم عاد يقول:

- تحرك.. انطلق.. حتى لا تبقى فريسة مطاردة عاطفة محمومة..

وتجمع التصميم فى زاويتى فيه وهو يواصل حديثه:

- الأسرة فخ.. والرجل الحر..

ودق جرس الباب فقاطعه. فتح الباب فرأى الشيخ مروان أمامه. قطب فى وحشية، ولكن الشيخ لم يباله. دخل وهو يتساءل:

- أحق ما سمعت يا عبد الله؟

فقال عبد الله بفظاعة:

- اغرب عن وجهى.

- أتطردنى من دارك؟

- شر طردة!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- إنك أنت الشيطان الرجيم.

فقال الشيخ وقد غلبه الحزن:

- ربما كان لك عذرك أول مرة!

- اخرس، حذار من السفسطة، اذهب وإلا حطمت رأسك.

- يا لطف الله، لقد أفسد عقلك الرجل الماكر.

- لا أريد أن أسمع صوتك، اذهب..

- المرشد الخبيث مراد عبد القوى، الذى يتخذ من مشيخة الحارة ستارا لمؤامراته الشيطانية، إنه يشعر بأننى عدوه بالفطرة، فلا يتردد عن

التشنيع بى وافتراء الكذب علىّ، ولكن كيف هان عليك أن تصدقه يا عبد الله؟!

- اذهب، إنه آخر نذير أنذرك به.

- صدقته، بعت صداقتنا بثمن بخس وخربت بيتك؟!

- أنت الذى خربته يا خنزير..

وانقض عليه يريد أن يقبض على عنقه.. صده الشيخ بذراعيه. تلاحما بشدة ما بين هجوم كاسر ودفاع حكيم. وفى تلك اللحظة جاء مهرولا رجل نحيل متوسط القامة فدخل بينهما حتى فصل بينهما، ثم هتف لاهثا:

- يا للعار... ياللخجل..

والتفت نحو الشيخ وهو يقول برجاء:

- تفضل الآن بالذهاب يا شيخ مروان.

وأغلق الباب وراءه، ثم مضى بعبد الله إلى الكنبة متمتما:

- تمالك نفسك أيها الأخ الكريم.

وضرب كفا بكف وهو يقول:

- أى شيطان عبث بكما معا؟!

وهتف عبد الله وصدره يعلو وينخفض:

- ذلك الداعر الخائن..

جلس إلى جانبه، وطوق منكبه بذراعه بحنان وقال:

- علينا أن نسترد هدوءنا واتزاننا قبل كل شىء.

فتأوه قائلا:

- إنى حزين لدرجة اليأس يا أستاذ عنتر.

- أعلم ذلك يا أخى فأنت مصاب فى حب كبير وصداقة وطيدة.

ـ لم تبد لى الحياة من قبل كريهة منفرة كما تبدو اليوم .

ـ نعم ، حياة ذات مائة وجه !

ثم بصوت منخفض :

ـ بيد أننا لا نعرفها على حقيقتها حتى نرى وجوهها جميعا !

ـ قلبى غاص بوحشة مخيفة يتعذر معها الاستمرار فى الحياة . .

ـ قلبى معك يا صديقى ، ولكن لا تستسلم لليأس . .

ـ إنها محنة بكل معنى الكلمة .

ـ وعلينا أن نخرج منها سالمين !

ـ يخيل إلىّ . .

فقاطعه قائلا :

ـ بين آلاف الضاحكين فى هذه اللحظة يوجد على الأقل شخص واحد كان يفكر فى الانتحار منذ عام .

ـ لعلك لم تعرف كل شىء عن مأساتى؟

ـ بل أعرف كل شىء عنها ، المهم أن نتجاوز الحاضر إلى المستقبل . .

ـ ما أسهل الكلام يا أستاذ عنتر .

ـ وليس العمل بالمستحيل . .

وسكت الرجل قليلا ثم استطرد :

ـ فكر جديا فى تجديد حياتك من جذورها .

استغرقته الأفكار فلم ينبس فسأله عنتر :

ـ هل خطر لك يوما أن تسأل نفسك عن معنى حياتك؟

فرفع إليه عينين ثقيلتين فاترتين ، فقال الآخر :

ـ ما معنى الحياة؟ ما معنى الإنسان؟ وما معنى الحب؟ ما معنى الخيانة؟ أأدركت ما أعنى؟

ـ كلا . .

ـ لقد جربت من الحياة جانبا أقرب إلى البدائية ، ولكن تنقصك الثقافة . .

ـ وما علاقة ذلك بمأساتى؟

ـ أوثق مما تتصور . .

ـ لا أدرى كيف . .

ـ فلنؤجل فهم ذلك إلى حين!

ـ ولكنى رجل بسيط التعليم .

ـ غير أنك تمتلك أقوى قوة فى الوجود وهى العقل . .

ـ إن ما يهمنى الآن أكثر من سواه . .

فقاطعه باهتمام :

ـ الثقافة أن تعرف نفسك ، أن تعرف الناس ، أن تعرف الأشياء والعلاقات ، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة!

ـ يا له من طريق طويل!

ـ لقد ضيعت فى الأرشيف عمرا! ، وفى المقهى عمرا ، وفى الزاوية عمرا . ومن حق الثقافة عليك أن تهبها بعض عمرك . . .

ـ يخيل إلى أننى لا أحب ذلك . .

ـ سوف تحبه ، وستجد مكتبتى تحت تصرفك . مكتبة متواضعة فما أنا إلا مدرس ، ولكن كن على يقين من أنك ستحبه . أكان من الممكن أن تحب زوجتك قبل أن تراها؟

فصاح بحنق :

ـ لا ترجعنى إلى تلك الذكرى .

ـ ما زلت تحبها!

ـ أود أن أقتلها . .

ـ هذا يعنى أنك ما زلت تحبها .

ـ ألم تسمعنى يا أستاذ عنتر؟

ـ الكراهية الحقيقية هى النسيان .

ـ يا له من حديث بغيض!

ـ لا تنس أننى ها هنا لأنتشلك من الهزيمة . فلا يجدى إلا الصدق . .

ـ الصدق؟ . . . أين الصدق؟

ـ إنه جوهرة قد تختفى أحيانا تحت ركام الأوهام .

ـ من سوء الحظ أن مأساتى ليست وهما . .

ـ منذا الذى يستطيع أن يقطع برأى فى ذلك؟

ـ الضحية!

ـ بل البصيرة . .

هز عبد الله منكبيه فى فتور ، فقال عنتر :

ـ فلنناقش خيانة الشيخ مروان المزعومة .

هتف عبد الله بغضب :

ـ المزعومة؟!

لم يعلق عنتر على صيحته فقال عبد الله :

ـ أجئت لتدافع عن ذلك الوغد؟

فقال بهدوء :

ـ من أجل الحقيقة وحدها جئت .

ـ لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين .

فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه :

ـ لأنى أحب الحقيقة ولأنى أود معاونتك .

ـ لم يعد من السهل إقناعى!

ـ فلنجرب.

ـ إنى أمقت ذلك.

ـ صبرك..

ـ لقد رأيت بعينى وسمعت بأذنى!

ـ لا تباه بأدوات الخطإ.

ندت عن عبد الله ضحكة جافة وقال:

ـ سمعت مثل ذلك من قبل، الوغد قاله لى!

ـ حقا؟

ـ لعن الحواس وأشاد بالقلب.

ـ وإنى أيضا ألعنها ولكن لحساب العقل!

ـ لا دخل للعقل فيما رأيت..

ـ إنى أعرف الشيخ مروان خيرا منك.

ـ لا أحد يعرفه مثلى.

ـ هلا حدثتنى باكتشافاتك؟

صمت عبد الله زاهدا فى الحديث ونفورا منه، فقال عنتر برجاء:

ـ احترم رغبة صديق يحبك ويتمنى لك الخير.

فقال عبد الله بحنق:

ـ إنه رجل مضجر، يعمل بلا روح، على خلاف ما يظن الناس.

فقال عنتر متوددا:

ـ أوافقك على رأيك فى ذلك ولكن لا ذنب له فيما استشعرته.

ـ ذنب من إذن؟

ـ لا أهمية لذلك الآن، غيره؟

ـ ذله المهين حيال التجار من أهل الحارة؟
ـ لا أنكر ذلك ولكنه من خلال علاقاته معهم أقنعهم بإنشاء المدرسة التى أنا مدرس بها!

بهت عبد الله. ومَضَتْ عيناه حنقا وهو يعثر بشرك، فقال الآخر برقة:

ـ لا تغرنك المظاهر، إن التكالب على الولائم عيب ولكن ثمة خيرا أكبر منه وأخطر.

فتساءل عبد الله بحذر:

ـ ومعاملته لخادمته؟ . . . أنسيت ذلك؟

فضحك عنتر طويلا ثم قال:

ـ يا للرجل الضحية!

واستمر فى ضحكه حتى قال:

ـ الحق يا صديقى أن البنت حاولت إغواءه!
ـ هه!
ـ أجل، تلك حقيقة لا يعلم بها أحد سواى، وأنا الذى اقترحت السرقة كعذر لطردها صونا لسمعتها!

بهت عبد الله مرة أخرى. عكست عيناه نظرة حذر وخوف.

تمتم:

ـ فلنغلق باب ذلك الحديث . .
ـ أوجدت رغبة طارئة فى الهرب؟
ـ الهرب؟!
ـ لعلك تخشى اكتشاف ضحايا أبرياء لك؟
ـ أستاذ عنتر! لا توصد باب السعادة فى وجهك.

ـ هيهات أن أنسى ما رأته عيناى .

ـ تعنى حكاية بئر السلم؟

فتنهد ولم ينبس .

ـ لمَ لم تصدقها فى وقتها؟

ـ لِكثافة الغشاوة فوق عينى .

ـ ثم استرجعتها بعين ذاكرة حانقة غاضبة كارهة!

ـ لن أقيم قصورا على الرمال مرة أخرى .

ـ راجع عقلك وحده .

ـ كلا ، الوغد الفاسق ، طالما ضبطت عينيه وهما يفسقان بنساء حارتنا!

ضحك عنتر ضحكة عالية وقال :

ـ الضحية المسكين! ألا تعرف أنه لا يستطيع أن يرى إلى أبعد من ذراعين؟

ـ كلا ، لم يشك ذلك قط .

ـ إنه لا يحب الشكوى على الإطلاق .

فصاح عبد الله ملقيا بآخر تحدياته وأخطرها .

ـ لقد رأيت يده فى صدر زوجتى .

ـ لم يحصل ذلك يا صديقى عبد الله .

ـ حصل .

تنهد الرجل قائلا :

ـ لابد مما ليس منه بد .

وسكت مليا ، مكفهر الوجه لأول مرة ، ثم قال :

- لا مفر من مصارحتك بحقيقة ما كان يجوز إعلانها .

تابعه الآخر صامتا ولكن باهتمام متزايد فقال عنتر :

- الرجل مصاب بعجز جنسى منذ أكثر من عام!

انكتمت أنفاس الانفعالات المحتدمة تحت طن من التراب فساد الذهول .

وارتفع صوت عنتر قائلا :

- ذهبنا من طبيب إلى طبيب ولكن لم يعدنا أحدهم بشفاء عاجل!

لم يستطع عبد الله الخروج من صمته فقال عنتر :

- إن كنت فى شك من قولى صحبتك إلى الطبيب بنفسى .

ثم وهو يرفع رأسه إلى أعلى :

- ليغفر لى الله ذنبى!

خلا كل منهما إلى نفسه . أغمض عبد الله عينيه . على رغمه انسابت دموع من تحت جفنيه . حانت من عنتر التفاتة إليه فرأى دموعه . تهلل وجهه وانبسط . تمتم بنبرة متأثرة :

- صديقى عبد الله . ليحفظك الله من كل سوء ، ليجعل لك من عقلك مرشدا .

٥

ضمت هنية وليدها إلى صدرها ترضعه . أما مروان الصغير فكان يحبو أسفل الكنبة . عبد الله . . انفرد بنفسه على كنبة أخرى يقرأ فى كتاب . وسألته هنية :

ـ متى تستعد للذهاب إلى القهوة؟

فأجاب دون أن يرفع رأسه عن الكتاب .

ـ سأذهب إلى السينما مساء اليوم مع عنتر .

ومضى الوقت فى هدوء شامل حتى دق جرس الباب . فتح الرجل الباب فدخل رجل طويل نحيل فى بدلة رمادية .

رحب به عبد الله قائلا :

ـ أهلا بشيخ حارتنا .

حيا القادم الزوجة وجلس حيث أجلسه عبد الله إلى جانبه .

ـ زارنا النبى يا سيد مراد عبد القوى .

ـ انتظرتك فى القهوة ولكنك لم تحضر كعادتك؟

ـ سأذهب إلى السينما مع الأستاذ عنتر .

ابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة ، فقال عبد الله :

ـ هلا ذهبت معنا ياسيد مراد؟

فقال بهدوء :

ـ جئتك لغرض آخر .

فنظر الرجل نحو زوجته نظرة خاصة لتغادر الحجرة ولكن شيخ الحارة بادره :

ـ لا تزعجها ، ولعله من المفيد أن تسمع حديثنا .

فتطلع إليه باهتمام حتى قال بهدوئه المألوف :

ـ سيدور الحديث حول صديقينا الإمام والمدرس!

دهش عبد الله . راقب وجه الرجل الجاد باهتمام . ولما طال السكوت قال :

ـ الحق أنه على رغم صداقتكم فلا يخلو لقاء بينكم من مناوشات غير مريحة .

ـ لا ضرر من ذلك .

ـ ترى هل لانتصارك المتكرر عليهما فى الشطرنج دخل فى ذلك؟!

ـ ليس ذلك بالتفسير المقنع .

ـ بلى .

ـ ولكنك تعرف لذلك أسبابا أخرى!

فلاح الارتباك فى وجه عبد الله فقال شيخ الحارة :

ـ أعرف أنهما يشيعان عنى أننى مرشد!

لم يخرج عبد الله عن صمته، فقال الرجل :

ـ ما عيب أن أكون مرشدا؟ ما المرشد إلا عين من عيون المصلحة العامة .

ـ هذا حق .

ـ ولا يخافه إلا المنحرفون .

ـ هذا حق أيضا .

فابتسم شيخ الحارة وقال :

ـ ما علينا يا سيد عبد الله، ماذا تعرف عن الرجلين؟

ـ كل خير يا شيخ الحارة .

وقالت هنية :

ـ نحن مدينان لهما بسعادتنا .

وقال عبد الله :

ـ وباسميهما سمينا وليدينا .

فقال الرجل بهدوء كاد يكون برودا :

ـ إنما أسأل عن الرجلين لا عنكما .

فقال عبد الله بحماس :

ـ هما ألصق الناس بى، ومنهما أستمد العلم والهداية والمودة .

ـ باسم الصداقة صارحنى : ألك رغبة حقيقية فى خدمة المصلحة العامة؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ أتفضلها عند المقارنة على العلاقة الشخصية؟

أجاب بعد تردد :

ـ أعتقد ذلك .

ـ حسن، قلت إنهما ألصق الناس بك، كثيرا ما تجمعكم سهرات طويلة فى بيت الإمام أو المدرس أو فى بيتك هذا، ماذا ترى؟ ماذا تسمع؟ ماذا تلاحظ؟

ـ سهراتنا تمضى عادة فى مناقشات يتخللها شرب الشاى والقرفة . وأنا شخصيا قليلا ما أشارك فى الحديث إذ إنه يعلو على كثيرا، ربما أطرح سؤالا من آن لآن، وهما على رغم خلافاتهما الكثيرة ينتهيان عادة إلى نوع من الوفاق .

ـ هل تستطيع أن تمدنى بأمثلة مما يدور النقاش حوله؟

فأجاب عبد الله باهتمام منتشيا بإحساس بالأهمية :

ـ إنها موضوعات خطيرة حقا، مثل الحرية والخبز، الخير والشر، الخلود وهل يكون بالأرواح وحدها أو بالأرواح والأجساد معا، العفاريت وهل توجد بالحقيقة أو بالرمز .

فابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة وقال :

ـ يا لها من مسائل خطيرة حقا!

ـ جدا .

ـ وهل برهنا على وجود للعفاريت حقيقى؟

ـ هذا ما يؤمن به الشيخ مروان. أما الأستاذ عنتر فيتكلم عن ذلك بحذر شديد وإن قرر أن احتمال وجود كائنات غيرنا فى العالم مقبول عقلا.

ـ وكيف بررا وجود الشر فى العالم؟

ـ مازال عقلى طفلا ولكن عنتر يؤكد أن ما نعده شرا ليس بشر حقيقى إذا نظر إليه فى موضعه من الصورة الكلية للكون.

فضحك شيخ الحارة ضحكة مقتضبة وقال:

ـ لا أظنه كذلك فى نظر أىّ من المرشدين.

فقالت هنية:

ـ ولا فى نظرنا يا سى مراد.

رحب شيخ الحارة برأيها بهزة من رأسه ثم تحول إلى عبد الله متسائلا:

ـ ألم يتطرق الحديث إلى موضوعات أهم؟

ـ أهم من الخير والشر والخلود؟

فقال وهو يدارِى ابتسامة:

ـ كالنساء مثلا أو المخدرات!

فهتف عبد الله:

ـ أعوذ بالله.

وقالت هنية:

ـ إنهما أفضل رجلين فى حارتنا!

فسأله دون اكتراث لا عتراضاتهما:

ـ ألم تلاحظ فى سلوكهما ما يدعو إلى التفكير؟

ـ كلا يا سيدى.

فرمقه بنظرة ذات معنى وقال :

ـ أذكر أنه كانت لك جولات مع الإمام مثيرة!

فقال عبد الله بيقين :

ـ لقد انقشعت غيومها بفضل القلب والعقل .

وقالت هنية باستياء :

ـ كيف هان عليك أن تذكرنا بذلك الماضى؟

ـ لا مؤاخذة، فإن عملى الدقيق عودنى على ألا أتورع عن شىء فى سبيل إتقانه .

ثم مركزا خطابه على عبد الله :

ـ رئى الأستاذ عنتر عبد العظيم فى ليلة ممطرة وهو راجع إلى مسكنه حافى القدمين، واضعا فى الوقت ذاته حذاءه وجوربه تحت إبطه ملفوفين بجريدة، ألم يدعك ذلك إلى التفكير؟

فضحك عبد الله وقال ببراءة :

ـ أبدى عن ذلك منطقا غريبا ولكنه لا يخلو من سداد . قال إن القدمين بغسلهما يعودان إلى أصلهما، أما الحذاء والجورب فلو تعرضا للمطر والطين لأصابهما حتما تلف كبير أو صغير!

ـ أأقتنعت بمنطقه؟

ـ اعتبرت الأمر كله فكاهة لطيفة .

ـ ألم تر فيه تصرفا غير لائق برجل من رجال التربية؟

ـ الحق أن احترامى له منعنى من التفكير على ذلك النحو .

ـ ألم يكن عرضة لأن يراه أحد من تلاميذه؟

ـ يا شيخ الحارة إن أكثريتهم لا تستعمل الأحذية خارج أسوار المدرسة!

ـ ألا يعنى سلوكه أنه يؤمن بأن الإنسان يجب أن يكون فى خدمة الحذاء لا العكس؟

ـ اعتبرت الأمر فكاهة كما قلت.

فتفكر مليا ثم سأله بلهجة ابتداء جديدة:

ـ صرح الشيخ مروان مرة بأنه يفضل أن يعيش فى ظلام دامس على أن ينور مجلسه بمصباح وارد من بلاد أعداء الله، ما رأيك؟

ـ بيته يا سيد مراد مضاء بالكهرباء!

ـ فما معنى التناقض بين قوله وفعله؟

ـ ما هى إلا طريقة للإعراب عن إيمانه وأصالته!

ـ هل استشهد مرة بقول الشاعر:

هل الله عاف من ذنوب تسلفت

أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

ـ أجل يا سيدى ولكن كان ذلك من خلال إبداء بعض الآراء فى النحو.

ـ إذن ليس لديك أى ملاحظات عن الرجلين؟

ـ لا يا سيد مراد.

فقال الرجل وهو يهم بالقيام:

ـ آن لى أن أذهب.

فقال عبد الله بحرارة:

ـ بودى أن أدعوكم جميعا إلى جلسة مودة وتصفية فى بيتى.

فقام شيخ الحارة وهو يقول:

ـ فات أوان ذلك!

ـ بل ثمة فرصة طيبة.

فقال شيخ الحارة بهدوئه البارد :

ـ لقد ألقى القبض عليهما منذ ساعتين!

ندت عن هنية آهة فزع على حين صاح عبد الله منكرا :

ـ لا!

ـ هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

هتفت هنية متسائلة :

ـ كيف يقبض على أشرف رجلين فى حارتنا؟

ـ علمى علمك يا أم مروان .

ـ ولكنها كارثة عظمى!

ـ بل أحداث عادية تقع كل يوم .

وأراد الرجل أن يمضى إلى الخارج ولكن عبد الله اعترض سبيله متسائلا فى هستيريا :

ـ لم قبض عليهما؟

فأجاب بوضوح وقوة :

ـ لا جواب عندى على ذلك .

وحياهما وانصرف . خلف وراءه زوبعة اجتاحت العقل والقلب . جعل الزوجان يتبادلان النظر فى صمت رهيب . قام بينهما حاجز مشحون بالنذر . وتمتمت هنية :

ـ أمر لا يصدقه العقل .

ـ أجل .

ـ كارثة حقيقية .

ـ أجل .

ـ انظر كيف تهدد كرامة الأبرياء!

- نعم . . نعم .

- عقلى سيطير فى الهواء .

- عقلى طار فعلا .

- ما معنى ذلك يا عبد الله؟ !

- ما معنى ذلك؟ !

- وشيخ الحارة لا يريد أن يتكلم .

- مسئولية خطيرة!

- ولكنه يعرف كل شىء .

- ربما .

- ولعله المسئول عن كل شىء .

- جائز .

- أليس هو بصديقك؟

- ليس من السهل مناقشة عمله .

وحدجته بنظرة قلقة وقالت :

- الحادث أقلقك؟ !

- طبيعى .

- لقد انفعلت به أكثر مما يجوز .

- بل دون ما يجب .

- قلبى . . قلبى غير مرتاح .

- ولا قلبى .

وتبادلا نظرة ثقيلة معتمة كالحة .

٦

ترامت من الحارة أصوات متلاطمة آخذة فى نقاش محتدم. ترامت من وراء النافذة المغلقة، فقال عبد الله:

ـ أهل حارتنا يتبادلون الرأى فى القهوة.

ومضى إلى النافذة ففتحها على مصراعيها فتدفقت الأصوات فى قوة ووضوح. ذهبت هنية بالطفلين إلى حجرة داخلية ثم عادت بمفردها فجلست قبالة زوجها على الكنبة وراحا يرهفان السمع باهتمام شديد.

* * *

ـ شيخ الحارة، إنه شيخ الحارة!

ـ هو الذى دبر الإيقاع بهما.

ـ ولكن لم؟

ـ الأسباب مجهولة.

ـ لعلها أسباب شخصية.

ـ ويتردد ذكر أسباب غريبة.

ـ أى أسباب غريبة؟

ـ أسباب لها علاقة بالسلوك!

ـ السلوك؟! معاذ الله.

ـ الإشاعات تتطاير.

ـ اضرب لنا مثلا.

ـ كلام قيل عن المخدرات!

ـ المخدرات؟! . . منذا يتصور ذلك؟!
ـ بل حتى الاتجار بالمخدرات جرى به الهمس .
ـ يا ألطاف الله!
ـ وكلام آخر عن النساء!
ـ ليقطع الله ألسنتهم .
ـ الرجلان بريئان ، وما هى إلا مكيدة قذرة!
ـ أجل مكيدة يقف وراءها شيخ الحارة .
ـ ولكن شيخ الحارة رجل مستقيم ما عرفنا عنه من سوء .
ـ كالخط المستقيم ، كالماء النقى .
ـ ووسائل عمله وإن تكن مجهولة إلا أنها مؤكدة لا تخطئ .
ـ هذه مغالاة لا مبرر لها ، لا يخلو الرجل من ضعف إنسانى . ولا شك عندى فى أنه أوقع بهما لأسباب شخصية!
ـ اتهاماته لا دليل عليها!
ـ كل واحد يعرف أنه لم يكن يستلطفهما .
ـ إنه لا يستلطف آخرين فلم لم يوقع بهم؟!
ـ لكل إنسان مزاياه ونقائصه ، هذا قانون ينطبق على الإمام والمدرس وشيخ الحارة ، فشيخ الحارة ليس بالإنسان الكامل ولكن الأمر لم يكن يقتضى القبض على الرجلين المحترمين .
ـ أنا أصر على براءة الرجلين وكمالهما!
ـ وأنا أصر على امتياز شيخ الحارة .
ـ انتظروا ، سنعرف الحقيقة عاجلا أو آجلا .
ـ لن يغير شىء من رأينا فى الرجلين .
ـ ولن يغير شىء من رأينا فى الرجل .

ـ يا لها من بلبلة! لن نتفق على رأى .

ـ ولكن الحق واضح .

ـ الحق واضح .

ـ الحق واضح .

ـ لا اتفاق على رأى .

ـ والتعصب رذيلة غير مجدية .

ـ ولكنه مبرر فى حال الرجلين فهما مرجع كل كلمة طيبة أو سلوك حميد فى حارتنا .

ـ وهو مبرر كذلك فى حال الرجل الساهر على أمن حارتنا وسعادتها .

ـ ولكننا حيال موقف يحتم علينا التفرقة بين الصواب والخطإ .

ـ لا يمكن أن يخطئ الرجلان .

ـ ولا يمكن أن يخطئ الرجل .

ـ يا لها من بلبلة! لن نتفق على رأى . .

* * *

ضاق صدر عبد الله بما ترامى إلى سمعه فقام إلى النافذة فأغلقها بعصبية . عادا يتبادلان النظرة المعتمة الثقيلة . وتمتمت المرأة :

ـ إنها لبلبلة حقا لا نستخلص منها شيئًا . .

فقال بقلق :

ـ ولكنها تعصف بالقلب عصفا .

ـ لكل رأيه ولكن أحدا لا يستسلم للعاصفة!

فقال وكأنما يناجى نفسه :

ـ لا يمكن أن يلقى القبض عليهما لغير ما سبب!

ـ سمعنا كل ما يمكن أن يقال .

ـ الأمر يختلف بما يتعلق بى !

وساد صمت لم تجرؤ على خرقه حتى عاد يقول :

ـ فأنا لم أستقر على الطمأنينة إلا استنادا إلى الثقة الكاملة بهما !

ـ لعله من المغالاة أن نطالب بالثقة الكاملة .

ـ لولا ثقتى الكاملة بالأستاذ عنتر لما عاودت الثقة بالشيخ مروان !

ـ ما أكثر الذين يؤمنون ببراءتهما !

ـ وما أكثر الذين لا يؤمنون !

ـ من الحكمة أن تبقى على ثقتك بهما ما دمت لا تجد الدليل القاطع على إدانتهما .

ـ ولكنها حكمة قد تقضى علىّ .

فتساءلت بحزن وأسى :

ـ ماذا تعنى ؟

لم ينبس ولكنه طالعها بوجه مكفهر . وإذا بها تهتف بحدة :

ـ أصبحت خبيرة برصد وساوسك !

ـ وساوسى ؟ !

ـ وساوس التردد وضعف الثقة بالنفس !

فصاح بغضب :

ـ علىّ أن أكون مغفلا لتشهدى لى بالقوة والثبات ؟ !

فقالت بوجه متقلص بالعذاب :

ـ ها نحن أولاء نعود رويدا إلى الجحيم !

ـ المهم أن يقوم صرح حياتى على حقيقة واضحة .

ـ لعل من الأهم من ذلك أن تنادى الحكمة فى المحن وأن تتذكر دائما أنك أب!

فقال بسخرية مريرة:

ـ أجل، إنى أبو مروان وعنتر...

ـ وهى حقيقة أهم مما عداها..

فقال بارتياب:

ـ بل توجد حقيقة أخرى أكبر، وليست هى بالثانوية، وأنا أريدها كما هى فى الواقع ولو دهمتنى فى هالة من النيران المتقدة.

ـ أخشى أن يقتصر حظنا من السعى فى النهاية على الاحتراق بالنيران المتقدة!

فرماها بنظرة متفحصة وقال بحنق:

ـ أنت وحدك تعرفين الحقيقة الكاملة!

فقالت بإصرار:

ـ حسبى أن أعرف أننى زوجة أمينة كما ينبغى للزوجة أن تكون.

فتمتم كأنما يناجى نفسه:

ـ زوجة أمينة كما ينبغى للزوجة أن تكون..

فقالت بتحد:

ـ أجل، هذا ما عنيته..

ـ أترثين لى فى صميم قلبك، أم تسخرين منى؟

فقالت بحدة:

ـ علم الله أنى أرثى لك..

ـ إذن فأنت زوجة وفية؟

ـ لشد ما يؤلمنى تساؤلك..

ـ لا مفر من التساؤل حتى الموت .

فهتفت بغضب :

ـ اطرح أفكارك المريضة أو فلتذهب إلى الجحيم . .

ـ ها أنا ذا أتقدم من الجحيم بخطوات ثابتة . .

ـ فكر مرتين ، فكر مرات ، فكر من أجل الطفلين . .

ـ ما أحوجنى إلى ضوء شمعة فى هذه الظلمات المتلاطمة ! . .

ـ حذار من الخطإ . .

ـ ما أحوجنى إلى ضوء شمعة ! . .

ـ حذار من رمى الأبرياء بالتهم الباطلة ! . .

ـ ضوء شمعة لا أكثر . .

ـ إذا غادرت بيتك للمرة الثالثة فسوف تكون الثالثة والأخيرة . .

ـ أتلجئين إلى التهديد لتمنعينى من التفكير؟

ـ إنى أحذرك وأنبهك . .

ـ هل رميتك بتهمة تكرهينها؟

ـ دعنى أسألك ، أما زلت تؤمن ببراءتى؟

فتنهد قائلا :

ـ فى محنتى الراهنة لا أجد قدرة على الإيمان بشىء .

ـ أرأيت؟ ! إنى ذاهبة ، وعليك أن تحسم أمرك للمرة الأخيرة وإلى الأبد . .

واندفعت خارجة من الحجرة وهى تردد :

ـ للمرة الأخيرة وإلى الأبد . .

٧

جلسا جنبا إلى جنب، عبد الله وشيخ الحارة. فرغا من احتساء الشاى وشيخ الحارة يقول :

ـ خمنت من بادئ الأمر لم دعوتنى يا صديقى .

فقال عبد الله بحرارة :

ـ بالنسبة إلىّ فهى مسألة حياة أو موت .

فقال شيخ الحارة بامتعاض :

ـ تجنب من فضلك المبالغات العاطفية .

ـ يهمنى جدا أن أعرف الأسباب التى أدت إلى القبض على الشيخ مروان عبد النبى والأستاذ عنتر عبد العظيم . .

فلوح شيخ الحارة بيده متضايقا وقال :

ـ عيب أهل حارتنا أنهم يخلطون بين العلاقات الشخصية والأمور العامة !

ـ ليس الفضول على الإطلاق ما يدفعنى إلى سؤالى !

ـ ليس الفضول وحده ولكن علاقتك الوطيدة بالرجلين .

ـ ولا ذاك أيضا ، ولكن لأنه على الجواب تتوقف حياتى ، حياة أسرتى ، سعادتى فى هذه الحياة .

ـ لعلك تعنى المضاعفات التى أصابت حياتك الزوجية فيما مضى ؟

ـ نعم .

ـ إنه موقف يشاركك فيه كثيرون من أهل حارتنا !

فتساءل عبد الله بذهول :

- حقا؟

- هو الحق على وجه اليقين .

- أتعنى . . ؟!

- أعنى أن الرجلين بحكم عملهما ، اتصلا بأسر كثيرة ، ونزلا منها نفس المنزلة التى نزلاها من أسرتك .

فقال عبد الله باهتمام :

- حدثنى عما وقع لتلك الأسر؟

فقال بعدم اكتراث :

- منهم من خاب ظنه فيهما فطلق ، ومنهم من أصر على الثقة بهما فمضت حياتهم كما كانت تمضى من قبل دون أدنى تأثر .

وحدجه بنظرة نافذة ثم واصل حديثه :

- ومنهم من لم يستقر على رأى فتردى فى هاوية العذاب .

- يا له من مصير غير محتمل !

- أجل .

- ولكن بوسعك أنت وحدك أن تحسم الأمر .

- لا شأن لى بذلك .

- بل هو واجبك نحو أهل حارتك .

- يا صديقى إن مهمتى تتعلق بأمن الحارة وسلامتها ولا شأن لى بحياة الأفراد .

- ولكن الحارة ليست إلا أهلها .

- الحارة شىء وأهلها شىء آخر .

- لا أفهم ذلك .

ـ ولكنى أفهمه بكل وضوح وبساطة، وتحت شعاره أعمل.

ثم قال بصوت مرتفع الدرجة:

ـ الحارة كل لا يتجزأ وليس من العسير أن أعرف ما ينفعها وما يضرها، أما أهلها فأفراد لا حصر لهم، وتتعدد مشكلاتهم بتعدد أهوائهم..

ـ معذرة، يتعذر على أن أسلم بذلك.

ـ دعنى أضرب لك مثلا: ثمة زوج يكره زوجته، وآخر يحبها حتى العبادة، وثالث لا هو يحبها ولا هو يكرهها، فهل تتصور لهم موقفا واحدا من حادثة القبض على الإمام والمدرس؟!

ـ ولكن كلا منهم يود أن يتخذ موقفا على ضوء الحقيقة..

ـ لعلك تفترض فيهم شجاعة قل أن تتوافر، وفى النهاية تتحكم الأهواء وحدها..

ثم التفت نحوه باسما متسائلا:

ـ أتحب زوجتك؟

فلاذ عبد الله بالصمت فقال شيخ الحارة:

ـ لطيف أن تحب زوجتك هذا الحب كله!

ـ أعترف بأنه لعنة تطاردنى...

ـ فلماذا تهمك الحقيقة؟

ـ هى كل شىء.

ـ خيل إلى أنها لا شىء فى مثل حالاتك...

ـ أى قيمة لحب يقوم على كذبة؟!

وتنهد عبد الله ثم استطرد:

- إنى أتساءل دون توقف: هل أطلق؟ هل أغمض عينى؟ هل أسلم للعبث والمجون؟ هل أنتحر؟ . . .

- يا له من عذاب!

- أنت المسئول عنه.

فابتسم شيخ الحارة ساخرا وقال:

- أنت وحدك المسئول!

- ما أسباب القبض عليهما؟ . . باسم الرحمة والصداقة أجبنى . .

فقال شيخ الحارة بهدوء:

- كثيرون يتصورون مسئوليتى فى ذلك على غير حقيقتها.

- ولكنك قبضت عليهما.

- لم أقبض فى حياتى على أحد.

- الكل يجمع . .

فقاطعه بهدوء:

- دعنا مما يجمعون عليه، إن مهمتى تنحصر فى جمع المعلومات.

- إذن حدثنى عن معلوماتك.

- المعلومات - كالوسائل التى أحصل بها عليها - سر من أسرار عملى.

- أليس من المحتمل أن تكون خادعة؟

- إنى أعرف عملى جيدا.

ثم بشىء من الكبرياء:

- ولا أثر فيه للهوى أو للأغراض الشخصية.

فقال بنبرة اعتذار:

- لم أقصد شيئا يسىء إليك ولكن حدثنى عن انطباعك، فهل تؤمن بأنهما مذنبان؟

ـ الحكم بذلك يخرج عن حدود عملى .

ـ كيف ذلك؟

ـ إننى أقدم معلومات ، أما الحكم عليها فمن اختصاص غيرى!

ـ ولكن لا شك فى أن لك انطباعك عن المعلومات التى تتجمع لديك؟

ـ لا أستطيع الجزم بشىء ، إنى أعرف على سبيل المثال ـ أن (أ) قابل (ب) فى الساعة (د) فى المكان (هـ) ، الواقعة مؤكدة ولكن ماذا تعنى عند أهل الاختصاص؟ . . قد يعقب ذلك القبض على (أ) ، أو على (ب) ، أو على (أ) و (ب) معا ، وقد لا يقع شىء ألبتة . .

ـ فإذا تم القبض فهذا يعنى الإدانة .

ـ كلا . . .

ـ ولكن كيف؟

ـ قد يفرج عن المقبوض عليه بعد وقت ما ، وقد يتضح أن القبض على (أ) و (ب) كان بغرض الإيقاع بثالث مجهول هو (و) . . !

ـ أى حيرة؟!

ـ هو الطريق إلى الحقيقة!

ـ ربما كان أفضل ما يتبع هو الانتظار .

ـ رأى يبدو وجيها ، ولكن الانتظار قد يمتد عاما أو عشرة أعوام ، فهل تطيق أن تترك زوجتك فى بيت أبيها هذه المدة دون حسم؟!

ـ إذن كيف يمكن معرفة الحقيقة؟

ـ لا أدرى ماذا أقول ، ولكن لا يكفى الاعتماد على الغير ، لابد من استغلال مواهبك الذاتية وخبرتك الماضية . .

تنهد عبد الله من الأعماق وقال :

ـ الحق أنى كنت أجد عند الرجلين إجابات جاهزة وحاسمة ومريحة كلما احتجت إليها .

ـ ولكن لا تنس أنك طلقت فى رحابهما مرتين!

ـ ربما كنت متسرعا .

ـ وربما كنت على حق .

صمت مليا مكفهر الوجه، ثم سأله :

ـ بم تنصحنى فيما يتعلق بزوجتى؟

ـ أرجوك، لا شأن لى بالشئون الخاصة . .

ـ ولكنها كل شىء . .

ـ بالنسبة لك لا للحارة التى أنا شيخها!

ـ إنى أسألك كصديق .

ـ أعترف بأن صفتى العامة قد غلبت على كل شىء، ولو أننى نصحتك نصيحة ثم ثبت بعد ذلك فشلها لحاسبتنى على ذلك بصفتى شيخ الحارة لا الصديق فحسب . .

تنهد عبد الله مرة أخرى ثم قال :

ـ إذن قد تثبت براءة الرجلين وقد تثبت إدانتهما؟ . .

ـ أجل . .

ـ ليس ثمة يقين؟

ـ بلى . .

ـ مجرد احتمال!

ـ نطقت بالصواب .

ـ وما النسبة المئوية لكلا الاحتمالين؟

ـ لنقل ٥٠٪!

ـ ٥٠٪ . .

ـ أيهمك أمر الرجلين لهذا الحد؟

ـ يهمنى أمر زوجتى قبل كل شىء . .

فابتسم شيخ الحارة وقال :

ـ كم تحب زوجتك! ولكن لا غرابة فأنا أحب زوجتى أيضا . .

فرمقه بنظرة غريبة وسأله :

ـ ألم تصادفك متاعب فى حياتك الزوجية؟

فضحك شيخ الحارة لأول مرة وقال :

ـ لا يخلو بيت من ذلك ، وقد وقفت مرة على عتبة الطلاق ولكن الله سلم . .

ـ أكان لذلك أسباب مختلفة؟

ـ ثمة تشابه لدرجة ما . .

فسأله بلهفة :

ـ وكيف استرددت ثقتك بها؟

تفكر الرجل قليلا ثم قال :

ـ الحق أن زوجتى تعاوننى فنحن لا نكاد نفترق ، ولا يجد الشك ثغرة بيننا يمكن أن يتسلل منها . .

نظر الرجل فى ساعته . قام . قام عبد الله أيضا . ومضى شيخ الحارة نحو الباب ولكنه توقف فى وسط الحجرة ، ثم سأله :

ـ بحكم الفضول ، هلا أخبرتنى بما أنت فاعل؟

فتفكر عبد الله وقتا ثم قال :

ـ لئن تكن زوجتى مذنبة بنسبة ٥٠٪ فهى بريئة فى الوقت نفسه بنسبة ٥٠٪ .

ـ وإذن؟

ـ ولأنى أحبها أكثر من الدنيا نفسها، ولأنه لا بديل عنها إلا الجنون أو الانتحار، فإننى سأسلم باحتمال البراءة..

فابتسم شيخ الحارة ومضى إلى الباب. وتصافحا. ثم سأله وهو يهم بالذهاب:

ـ وهل أنت سعيد؟

فابتسم عبد الله ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

ـ بنسبة لا تقل عن ٥٠٪.

روبابيكيا

كالعادة كل صباح كان أول طارئ على الطريق. مع أول شعاع للشمس تنفرج عنه السحب. أورقت الأشجار فترامت خضرتها على المدى فوق كورنيش النيل. مشى على مهل مفعما بأنفاس الربيع وعيناه تنظران إلى بعيد. تنظران فى لهفة. وكالعادة أيضا، وقريبا من منتصف الطريق لاحت لعينيه قادمة. تلاقيا تحت شجرة الأكاسيا فتصافحا باسمين. تساءل:

- نجلس فوق السور؟

- لا بأس.

وجلسا ظهراهما للنيل ووجهاهما للطريق الخالى.

- صباح سعيد أن أصبح على وجهك.

- شكرا.

- وعلى رغم أننا لم نتعارف إلا أمس فإننى أشعر بأننى أعرفك منذ زمن بعيد..

- طالما جمعنا الطريق كل صباح.

- كل صباح سعيد.

- مشوار ضرورى لى لتجنب الترهل.

- ألفتك، كالنسمة الرقيقة والسحابة البيضاء، ونفذت إلى أعماقى بقوة مدعمة بالزمن.

ـ لعلك تساءلت كثيرا عن سر مسيرتى الصباحية؟

ـ كثيرا جدا، وبخاصة أن مظهرك لا يوحى بأنك موظفة. قلت لعلها تتمشى فى منطقتها السكنية لأسباب جمالية . . .

ـ ولكن ماذا عن خواطرك الأخرى؟

ـ الأخرى؟

ـ أى نوع من النساء ظننتنى؟

ـ سيدة جميلة بقدر ما هى قوية، نظرتها جريئة ورزينة ومليئة بالثقة. وتسلل بصرى . . .

ـ وتسلل بصرك؟

ـ إلى أصابعك فلم أر خاتما!

ـ ولست فى الوقت نفسه بنتا من البنات، أليس كذلك؟، ماذا قلت؟

ـ مطلقة.

ـ وفيم فكرت؟

ـ لم يخطر ببالى عبث . .

ـ توكد لدى ذلك عند تعارفنا أمس.

فتفكر قليلا ثم قال:

ـ ولكن على أن أصارحك بأنى أحبك.

ـ تعنى أنك معجب بى؟

ـ أكثر من ذلك، أنا أحبك بكل معنى الكلمة . .

ـ ولكنك لم تعرفنى بعد.

ـ ثمة حب يجىء بعد المعرفة، وحب يسبق كل شىء.

ـ الآخر كثير الأعباء.

ـ الحق أنى أحب المغامرة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ـ أتحب الصراحة؟ . . . تخيلت حديثنا هذا من قبل!

فقال بفرحة :

ـ هذا يعنى أنى خطرت ببالك . .

ـ ألا يشهد هذا الطريق على قديم زمالتنا؟

ـ وشهد أيضا مصيرى وهو يتقرر حتى من قبل أن أدرى . .

ـ ولكن ألم تنقض مدة طويلة قبل أن ينطق الحب الذى تزعم أنه سبق كل شىء؟

ـ كان اللقاء يمر فى سرعة الضوء .

ـ جواب غير مقنع تماما .

ـ وأول الأمر كنت فى غفلة، واعتقدت فترة أخرى أنك سيدة متزوجة!

ـ وربما كنت مرتبطا بعلاقة ما؟

ـ ربما . . .

ـ أى نوع من العلاقة من فضلك؟

ـ عابرة . .

ـ عظيم!

ولاذا بصمت قصير حتى خرقه الرجل قائلا بنبرة جديدة بعض الشىء . .

ـ يحسن بى أن أقدم ما خفى من شخصى، مهنتى صائغ، فى الثلاثين من عمرى، مركزى المالى على ما يرام .

ـ وأنا مطلقة، قدر عمرى كما تشاء، ويحسن بى أن أصارحك بأنى جربت الزواج أكثر من مرة!

- ما أجمل الصدق! . . .

- ألم يخفك ذلك؟

- كلا!

- من حقك أن تقلق ولكن صدقنى أنى كنت وما زلت بريئة!

- وأنا أحبك . .

- إذن فأنا سعيدة أكثر مما أستحق . .

- أأفهم من ذلك أنك . . . ؟

- أنى أشاركك عواطفك!

- ما أسعدنى من عاشق . .

وحدجته بنظرة ثاقبة وهى تسأله :

- ألم تتحر عنى؟

- نعم، لم أتحرّ . .

- أما أنا ففعلت .

فضحك طويلا ثم تساءل :

- وهل نجحت فى الامتحان؟

- أعتقد ذلك . .

- بأى مقياس تحكمين؟

- العجز هو ما أكرهه فى الرجل .

- العجز؟!

- أحبه قويا قادرا، رذائل القوة أحب عندى من فضائل الضعف . .

- إنك واضحة وقوية . . .

- ماذا تكره أنت فى المرأة؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ القبح والانحلال .

ـ الانحلال؟!

ـ أظنه لا يحتاج إلى تفسير .

ـ أأنت ممن يهتمون بالماضى؟

ـ كلا .

ـ ماذا تقصد بالانحلال؟

ـ الاستهتار، مثل إنشاء أكثر من علاقة فى وقت واحد، أو التسليم بلا حب!

ـ ولكن ذلك مرض؟

ـ ربما .

ـ لا توجد امرأة خائنة أبدا .

ـ هذا صحيح بصفة عامة .

ـ يخيل إلى أننا متفاهمان؟

ـ وعلينا أن نعد أنفسنا للزواج بأسرع ما يمكن . . .

* * *

٢

مضت فى الطريق ووقف يتبعها ناظريه . بقلب كله هيام . ثم انتبه إلى حركة ما . التفت نحو السور . وهو يقترب منه ظهر رأس رجل . لعله كان جالسا أو نائما . ها هو ذا يقف الآن أمامه فى الناحية الأخرى من السور التى تلى شاطئ النيل . ترى هل سمع حديثه مع

المرأة؟ وطالعه الغريب بوجه شاحب، بارز العظام، غائر العينين، وذقن غير حليق. سوى جلبابه المتسخ فوق جسده الهزيل، ثم عبر السور فصار على كثب منه. لص؟ متشرد؟ ليكن ما يكون. همّ بالذهاب ولكن صوته استوقفه وهو يقول:

- الحب!... ما أجمل الحب!..

رمقه باشمئزاز وهم بالسير مرة أخرى ولكن الرجل خاطبه قائلا:

- لدينا حديث مشترك فيما أعتقد.

فسأله بتقزز.

- أتخاطبنى؟

- لم يعد يوجد سوانا فى الطريق.

- ولكنى لا أعرفك؟

- ولا أنا أعرفك!

- إذن لا تخاطبنى.

- ولكن لدينا حديثا مشتركا.

- من أنت؟

- تاجر روبابيكيا.

- وأى حديث تعنى؟

فأشار بيد معروقة شبه سوداء من القذارة نحو الناحية التى سارت فيها المرأة، وقال:

- بخصوص السيدة..

- وما شأنك بها؟

- كنت آخر زوج لها!

- هه؟!

ـ تكلمت بوضوح فلا داعى للتكرار .

فتفحصه بذهول وتمتم :

ـ أنت مجنون بلا شك . .

فضحك قائلا :

ـ لم ينعم الله على بالجنون بعد .

ـ لعلك تهذى!

ـ لعلك تتساءل كيف آل أمرى إلى ما ترى؟

فلم يجب الرجل . فقال تاجر الروبابيكيا :

ـ كنت تاجر غلال ناجحا . .

ثم بنبرة ساخرة :

ـ ثم أفلست!

وضحك قائلا :

ـ ولكنى ما زلت تاجرا على أى حال ، وهاك عربتى . .

وأشار إلى عربة منزوية وراء جذع شجرة فوق الطوار . هز الرجل منكبيه استهانة ، أو تظاهر بالاستهانة ، وهمّ للمرة الثالثة بالسير ولكن التاجر سأله :

ـ والحديث المشترك؟

فسأله بحدة :

ـ أى حديث مشترك؟

ـ حديثنا عنها ، أى حديث عنها فهو مهم بالنسبة إلى ، الحق أنى ما زلت أحبها .

ـ ما زلت تحبها؟!

ـ بكل جوارحى .

- ولم طلقتها؟
- نتيجة حتمية للإفلاس.
- ولكن الزوجة المَخلصة..
فقاطعه:
- لا يمكن أن تكون زوجة لتاجر روبابيكيا.
- ألم تكن.. ألم تكن تحبك؟
- بلى فيما أعتقد.
- كيف تغير قلبها فجأة؟
- لا لوم عليها فى ذلك.
- لعل إفلاسك جاء نتيجة لأخطاء لا تغتفر!
- أعتقد أنا أن إفلاسى وقع بسببها واعتقدت هى أنه جاء نتيجة لعجزى..
- عجزك؟!
- وهى تكره العجز كما قالت لك من دقائق!
- زدنى إيضاحا.
- لا أهمية لذلك.
- ولكنه مهم فى رأيى..
- إنك تحبها ومن حقك أن تجرب حظك..
- ولكنك أثرت موضوعا وتركته مفتوحا..
- لا تقلق فهى امرأة ممتازة بكل معنى الكلمة..
- لا تحاول خداعى..
- لا سمح الله.
- إنك تعنى اتهامها..

ـ أؤكد لك أنها على خلق عظيم . .

ـ لعلها لم تكن تحبك؟

ـ ها أنت ذا تتهمها بأنها تزوجت من رجل من غير أن تحبه .

ـ أعنى أنها لم تحبك الحب الكافى .

ـ جعلتنى أؤمن بخلاف ذلك .

ـ المرأة المحبة الفاضلة لا تتخلى عن زوجها .

ـ أنا الذى تخليت عنها !

ـ بسبب إفلاسك؟

ـ أليس ذلك كافيا؟

ـ ألم تختبر استعدادها للوفاء؟

ـ نعم ، لم أفعل ، لدى تسليمى بعجزى عن إسعادها هربت بالطلاق .

ـ بذلك يصبح الأمر واضحا .

ـ لا شىء واضح فى هذه الدنيا المعقدة .

ـ ولكن ما قلته واضح جدا .

ـ جرب حظك ، جرب أن تبلغ الوضوح بنفسك .

ـ يخيل إلى أنك تداور وتحاور لتلقى بذور الشك فى نفسى . .

ـ أنت تقول ذلك .

فهتف بغضب :

ـ إذا كان لديك ما يستحق القول فقله وإلا فاذهب بغير سلام . .

ـ المتاجرة بالأشياء القديمة علمتنى السماح .

ـ الحديث المشترك؟

ـ لا شىء بعد .

- أتهزأ منى يا صعلوك؟

- أبدا. ولكنى أحب الحب كما أحب المحبين.

- كنت تتجسس علينا؟

- أبدا، ولكنى أنام على شاطئ النيل فى الربيع.

- كذاب.

- الربيع الذى يجدد الشجر ويعجز عن تجديد حياة البشر!

- لا ألوم إلا نفسى على الاستماع إليك.

- لن تندم على ذلك أبدا.

- عد إلى القبر الذى خرجت منه.

- سمعا وطاعة، أما مجلسى المختار فهو قهوة سوق الكانتو، وشهرتى هناك «الملعون»..

- عليك اللعنة!

- إلى اللقاء.

٣

أمام المرآة وقفت ترنو بإعجاب إلى العقد المطوق لجيدها. ترنو بصفة خاصة إلى اللؤلؤة المدلاة من واسطته. ونظرت من خلال المرآة أيضا إلى صورة الرجل المتربع فوق الديوان وراءها يتسلى بمشاهدة النيل من النافذة. وقالت وهى تتجه نحو الديوان:

- فى أصابعك معجزة.

نزع بصره من النيل كمن يصحو من غفوة وتساءل:

- ماذا قلت يا عزيزتى؟

- من يبدع هذه اللؤلؤة فهو معجزة!

- المعجزة حقا من تصنع اللؤلؤة من أجله.

فجلست إلى جانبه فوق الديوان وهى تقول.

- جميل أن أسمع منك غزلا رقيقا حتى اليوم.

- حقا؟ . . . ما وجه العجب فى ذلك؟

- المألوف أن الغزل يتوارى كلما أوغل المرء فى الزواج.

- ولكنك نبع للحب لا ينضب أبدا.

فمسحت على شعر رأسه بنعومة وقالت.

- حقا؟!

- أيداخلك شك فى ذلك؟

- كلا، ولكنك لم تعد كما كنت.

فتردد قليلا ثم قال:

- لا علاقة لذلك بحبنا.

- لا تخف عنى شيئا فإنى أشعر بكل شىء.

- أردت دائما ألا أجرك إلى متاعبى.

- ستجدنى دائما فى صميم متاعبك، لا تخف عنى شيئا . .

فتنهد قائلا.

- الحق أنى محاصر بالقلق . . .

- أرأيت؟!

- أقاومه بكل ما أوتيت من قوة الانحدار إلى الهاوية!

- وأخفيت عنى كل شىء.

- لم أكف دقيقة واحدة عن الكفاح.

ـ والجميع يضربون المثل بسعادتنا .

ـ الحق أنى أندفع نحو الخراب .

ـ الخراب؟ !

ـ اختل ميزان العمل فى يدى ولا سبيل إلى ضبطه .

فقالت بحزن حقيقى :

ـ أى لعنة! أى لعنة! أى صحوة مباغتة من سعادة وهمية؟ !

ـ بل كانت وما زالت سعادة حقيقية .

ـ أى لعنة تطاردنى؟ ! لم أضن بعطاء، هيأت لك عشا ذهبيا، ما رأيك فى عشنا؟

ـ جنة .

ـ وأصدقائنا؟

ـ جذابون كالسحرة .

ـ ورحلاتنا وليالينا؟

ـ جمال فى جمال . .

ـ أينقصنا شىء؟

ـ أبدا، ولكنى أنفق المال بجنون!

ـ إنك صائغ عبقرى ولا حدود لقدرتك .

ـ لو كان مال قارون لنفد . .

ـ لا تقل ذلك يا حبيبى .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ وأى طعم للحياة بغير مباهجها الحقيقة؟

ـ أنا مهدد بالخراب العاجل .

ـ لا تخيب أملى فيك .

ـ ولكنها الحقيقة .

ـ لا تعلن عن عجزك .

فقال بجزع :

ـ كل شىء له حد لا يجوز أن يتجاوزه .

ـ إنما تهمنى النتائج ، أنا أحب الحياة الحلوة بقدر ما أحبك .

ـ أنت جميلة ، أنت فاتنة ، أنت عطر الحب وروحه ، ولكنك تتعلقين بمسرات يمكن الاستغناء عنها .

ـ لا تقل ذلك أبدا .

ـ الحب أغلى من أى شىء سواه .

ـ ولكن أزهاره لا تنور إلا فى خمائل المسرات .

ـ ظننته غنيا بنفسه عما عداه .

ـ لعل حبك فتر . .

ـ يا له من حكم جائر !

ـ عندما يفتر الحب ينشط التفكير والتدبير .

ـ أبدا ، ليس الأمر كذلك .

ـ عندما يفتر الحب يبدأ الندم على السرور البرىء .

ـ أنت تعلمين أن حبى لك لا يفتر أبدا .

ـ بل وليتنى ظهرك أمس واستغرقت فى النوم !

ـ بسبب انشغال البال لا فتور الحب .

فهزت رأسها فى ارتياب فقال :

ـ ما أنا إلاّ إنسان ذو طاقة محدودة .

ـ لم تكن كذلك فى أيامنا الحلوة .

ـ أنت سيدة ناضجة وتدركين من حقائق الأمور ما يقصر عن إدراكه غيرك . .

فقالت بحدة :

ـ لم أحب هذا القول .

ـ ما قصدت سوءا قط .

ـ ولكنى كرهته . .

ـ إنى أعتذر، وإنى أحبك، وأقر بأننى إنسان ذو طاقة محدودة!

ـ إنك ترعبنى .

ـ حتى الحب تلزمه استراحات قصيرة . .

ـ إنك تحملنى ذنوب الآخرين .

ـ لا يعنينى الماضى أبدًا .

ـ إنى امرأة بريئة، لا عيب فيها إلا أنها تحب الحياة حبا لا يعرف الحدود .

ـ ولكنه حب لا يتأتى لرجل إشباعه .

ـ الحق ما أنا إلا ضحية لعجز الرجال .

ـ يا حبيبتى علينا أن نحرص على حياتنا المشتركة .

فقالت بكبرياء :

ـ لم أستطع ذلك فى الماضى، ولا أستطيعه الآن .

ـ أليس ذلك أيضا نوعا من العجز؟

ـ نعم، ليس كذلك، لا تسم الأشياء بأضدادها .

ـ أنت اليوم فى عز نضجك . .

فهتفت غاضبة :

ـ لست عجوزا بعد .

ـ معاذ الله أن يخطر لى ذلك المعنى .

ـ ولكنه خطر ، ورميتنى بما هو فيك .

فتنهد يائسا وقال :

ـ لا فائدة ، أفلست فى كل شىء .

ـ ها هى ذى اللعنة تطاردنى من جديد .

ـ ليبعد الله عنا اللعنات !

ـ ها هى ذى تطاردنى من جديد !

ونهضت غاضبة فغادرت الحجرة . . .

* * *

٤

تذكر فجأة تاجر الروبابيكيا . حاجة ملحة دفعته إلى البحث عنه لمناقشته . ولم يجد صعوبة تذكر فى العثور على القهوة القابعة تحت البواكى بسوق الكانتو . وقف يجيل البصر فى الجالسين ولكنه لم يظفر بطلبته على حين تطلعت إلى منظره الأبصار فى دهشة . ورأى وراء النصبة رجلا يقوم بكل شىء فقدر أنه صاحب القهوة فاقترب منه ، حياه ، وسأله :

ـ أين تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون؟

فحدجه الرجل بنظرة أشعلها انتباه طارئ وقال :

ـ لا أدرى .

ـ ألا يجلس عادة فى هذه القهوة؟

ـ ولكنى لم أره من مدة .

ـ وأين يمكن أن أجده من فضلك؟

ـ لا أدرى .

ـ هل يوجد أمل فى رؤيته إذا انتظرت بعض الوقت؟

ـ من يدرينى؟ !

وقف الرجل فى وسط القهوة مترددا . وإذا برجل يدنو منه حتى يقف أمامه ثم يسأله :

ـ أتريد مقابلة الملعون؟

ـ أتعرف مكانه؟

ـ اتبعنى .

قال ذلك ومضى إلى الخارج . تبعه بأمل جديد فى مقابلة الرجل . كان المغيب يضفى على الدنيا ظلاله ، ولفحات هواء رطيب تترد بأنفاس الخريف .

سار وراء الرجل فى زقاق ضيق .

ـ أنحن ذاهبان إلى بيته؟

فلم يجب الرجل وواصل السير . ولدى أول منعطف يصادفهما هوت ضربة على رأسه فشهق ثم سقط مغمى عليه . ولما أفاق وجد نفسه ملقى فوق مقعد خشبى كأنه أريكة فى ظلام دامس لا يُرى فيه شىء . جلس فى حذر وهو يتساءل .

ـ أين أنا؟ !

وأجال يده فى الظلام وهمّ بالوقوف ، وإذا بصوت غليظ يقول بنبرة آمرة ومهددة معا :

ـ لا تتحرك .

فصدع بالأمر وهو يرتعد وسأل برجاء :

- ما معنى هذا من فضلك؟

- لا تسأل ولكن عليك أن تجيب . .

- سل عما شئت ولكنى لم أسئ إلى أحد .

- اخرس .

فخرس وقلبه يدق فعاد الصوت يسأل :

- ما مهنتك؟

- صائغ .

- وعمرك بالسنة الهجرية؟

- لا أعرف .

- أنصحك بأن تتجنب الكذب .

- يمكن معرفته إذا أعطيت ورقة وقلما ونورا!

- أيختلف عمرك الهجرى عن عمرك الميلادى؟

- طبعا .

- هل أفهم من ذلك أنك مصاب بانقسام الشخصية؟

- أنا سليم والحمد لله .

- إذن لم ذهبت إلى قهوة الكانتو؟

- لمقابلة تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون .

- ما علاقتك به؟

- لا علاقة لى به .

- تجنب الكذب حرصا على سلامتك .

- أنا لا أكذب وليس ثمة ما يدعونى إلى الكذب .

- ما علاقتك به؟

ـ تقابلنا مرة فى الطريق . .

ـ أكرر تحذيرك من الكذب .

ـ بالحق نطقت .

ـ أى طريق؟

ـ طريق النيل .

ـ متى؟

ـ منذ عام وبضعة أشهر .

ـ لأى مناسبة؟

ـ صادفنى فى الطريق فتبادلنا حديثا عابرا .

انهالت عليه السياط فى الظلام كالنيران . اجتاحه ألم حاد فصرخ من الأعماق . توقف الضرب ولكن صراخه لم يتوقف . تُرك يصرخ ويتوجع بلا مصادرة لحريته فى ذلك . حتى همد وسكت . عاد الصوت يقول :

ـ حذرتك من الكذب .

فقال بصوت ممزق :

ـ أنا لا أكذب .

ـ ماذا كانت مناسبة المقابلة؟

ـ كنت أجالس خطيبتى على سور الكورنيش ، فلما ذهبت ظهر لى الرجل من وراء السور وقال لى إنه كان آخر زوج لخطيبتى . .

ـ السوط أخف أدوات التأديب .

فقال بجزع :

ـ ولكنى أقول الصدق .

ـ ومن كان أول زوج لها؟

ـ لم أسأله عن ذلك .

ـ وماذا دار بينكما أيضا؟

ـ حدثنى عن حياته حديثا غامضا ، وفى النهاية أخبرنى عن مجلسه المختار بقهوة سوق الكانتو . .

ـ لم؟

ـ لا أدرى .

ـ ولم ذهبت تسأل عنه اليوم؟

ـ شعرت برغبة فى محادثته .

ـ فى أى موضوع؟

ـ فشل زواجه .

ـ لم؟

ـ ربما لأن زواجى أنذر أيضا بالفشل . .

ـ ماذا توقعت أن تجد عنده؟

ـ لا أدرى ، ولكن اليأس جعلنى أتخبط . .

ـ حذرتك من الكذب . .

فهتف فى رعب :

ـ ما قلت إلا الصدق .

ـ أمهلك دقيقة واحدة .

ـ أقسم على ذلك بكل غال .

ـ دقيقة واحدة .

ـ أى شىء يدعونى للكذب . . . ؟!

ـ أى شىء يدعوك إلى الكذب؟

ـ لا شىء ألبتة . . صدقونى . .

ـ لم يبق إلا ثوان . .

ـ الرحمة . . .

ـ انتهت الدقيقة . .

وانهال عليه العذاب فى الظلام. لم ينج منه رأس ولا قدم.

* * *

٥

تراءى الملعون فى الجانب الأيسر من قهوة سوق الكانتو وهو يدخن البورى. تلاقت عيناهما مرة ولكن الملعون بدا مستغرقا فى البورى. تقدم منه حاملا كرسيا وضعه أمامه وجلس. ورمقه الملعون بنظرة غير مرحبة وسأله :

ـ ماذا تريد؟

ـ ألا تذكرنى؟

ـ من أنت؟

ـ ألا تذكر الصائغ؟

فانقلبت سحنة الملعون من السخط إلى الذهول، وهتف :

ـ الصائغ؟!

ـ بلحمه ودمه!

ـ ولكن لا لحم هناك ولا دم.

ـ أجل!

ـ غير معقول.

ـ هى الحقيقة كما ترى.

ـ أعوام انقضت ولكنها لا تكفى لتبرير هذا التغير الشامل!

ـ أجل . .

ـ كأنك خارج من قبر .

ـ كأنى خارج من قبر .

ـ ماذا حدث لك؟

ـ ذاك تاريخ طويل .

ـ ولكن زواجك فشل؟

ـ أجل .

ـ ووقع الطلاق؟

ـ لا أدرى .

ـ وكيف تلاشى شكلك الآدمى؟

فتردد قليلا ثم سأله :

ـ ألك أعداء؟

ـ ليس لى أصدقاء .

ـ سأقص عليك قصتى ، فمنذ . .

وتوقف حائرا ثم تمتم :

ـ الحق أنه لم يعد لى علم بالزمن . .

ـ أهمله كما يهملنا . .

ـ جئت يوما أسأل عنك فى هذه القهوة ، خطفت ، جرى معى تحقيق غريب ، عذبت ، سجنت فى الظلام زمنا لا أدريه ، ثم وجدتنى ملقى فى الخلاء!

ضحك الملعون وقال :

ـ مررت بمحنة مماثلة فى زمن ماض . .

- أنت أيضا؟!

- أنا أيضا . .

- نفس الظروف والأسباب؟

- تقريبا . .

- ومن أولئك الشياطين؟

- علمى علمك!

- كيف يمكن أن تقع تلك الأحداث؟!

- كما يقع غيرها . .

- أمور تجنن . .

- لا تشغل بالك بما لا حل له .

- لا حل له؟

- أجل بما لا حل له، وحدثنى عن زواجك .

- لم أجد أثرا لدكانى الذى ضاع فى التنظيم .

- حدثنى عن زواجك .

- ذهبت إلى بيتى، بيت الزوجية، فوجدته مأهولا بأغراب!

- ضاع كل شىء؟

- كل شىء .

فقال الملعون باسما :

- ولكن زوجتنا ما زالت ترفل فى حلل السعادة .

- ألديك معلومات عنها؟

- هل فى وسع عاشق أن ينزع عينيه من معشوقه؟!

- جاء دورى لأسألك .

ـ ما أكثر أخبارها وما أقلها . حدث واحد يتكرر إلى ما لا نهاية ، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج . . .

ـ ما أعجب ذلك!

ـ ما أعجب ذلك!

ـ يا لها من امرأة!

ـ يا لها من امرأة!

ـ لكنها طعنت فى السن؟

ـ جمالها فى عينى غير قابل للزوال!

ـ سيجىء يوم فيجرى عليها ما جرى علينا .

ـ أشك فى ذلك .

ـ لكل شىء نهاية .

ـ ليس كل شىء له نهاية!

ـ أنت تمزح ولا شك .

ـ لم قصدتنى فى ذلك اليوم المشئوم؟

ـ أردت أن أناقش معك أسباب الفشل .

ـ أكنت بدأت تعانيه؟

ـ أجل . .

ـ هى أسباب واحدة .

ـ حقا؟

ـ ما العجب فى ذلك؟

ـ إذن فهى امرأة مريضة .

ـ الأصح أن تقول إننا نحن المرضى!

ـ لن يوفق معها رجل .

ـ لعله لم يخلق بعد .
ـ ولن يخلق أبدا .
ـ لا تحكم على المجهول .
ـ إنه شيء يفوق الخيال .
ـ كما أمكن أن توجد هى ، فمن الممكن أن يوجد هو .
ـ فتنهد فى قنوط وقال :
ـ دلنى على عنوانها .
ـ لمه؟
ـ أرغب فى مقابلتها .
ـ لكنها لن تعرفك .
ـ أذكرها بنفسى فتعرفنى كما عرفتنى أنت .
ـ وما فائدة ذلك؟
ـ أجل ، وما فائدة ذلك؟!
ـ خير من ذلك أن تفكر فى عمل تحصل به على رزقك .
ـ كنت أبرع صائغ .
ـ دعنا من كان وكنا . .
ـ ماذا أعمل؟
ـ ممكن أجد لك عملا فى الروبابيكيا ولكنى من زمن أفكر فى مغامرة تعود علينا بالرزق الوفير . .
ـ ما هى؟
ـ مشروع لم أجد الشريك الثقة له . .
ـ وهل أصلح له؟
ـ سأجد لك غرفة للإقامة فوق سطح عمارة فى حى راق .

- وبعد؟

- ومن خلال علاقاتى الكثيرة بالبيوت والناس، سأشيع أنك من رجال الأمن السريين الدهاة . .

- رجال الأمن؟!

- وينتشر الرعب فى المساكن التى لا يخلو واحد منها من نقطة ضعف يخاف عليها من القانون . . .

- وماذا نجنى من وراء ذلك؟

- أمثل دور السمسار الخاص، وأتلقى الهبات والهدايا !

- يا له من مشروع خيالى !

- هو أكثر من واقعى، ستنهال علينا الأموال. لن نسترد قوانا الضائعة، ولكنا سنعيش فى رفاهية كالأحلام . .

- أتمنى أن تتحقق الأحلام .

- وإذا تحققت أمكن بفضل الرفاهية أن نجد الوسائل الكفيلة بالعزاء والنسيان . .

- نسيان المرأة وعشقها . . ؟

- أجل، ولدينا فرص لا حصر لها لتكرار التجربة فى أحياء كثيرة . .

- لو تحقق ذلك فهو المعجزة !

- أجل . . المعجزة!

* * *

٦

فى بهو فاخر جلس الشريكان. بينهما مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام وشراب. بهو كأنه متحف. وكانت أعينهما تلتمع بالنشوة حين قال الصائغ وهو يرفع كأسه :

ـ صحة الضعف البشرى .

ـ وليدم إلى الأبد!

ـ أصبح الآن من الممكن أن ننسى .

ـ صدقت ولكننا لم ننس بعد تماما .

ـ كلما رجعنا إلى الإفاقة رجعت الذكريات كالزنابير . . .

ـ يا ويلنا من الإفاقة .

ـ ولكن لدينا ما يشغلنا ، لدينا الطعام والشراب والتحف النادرة وأدوات الترف والحدائق والملاهى الليلية . .

ـ لدينا حقا ما يشغلنا ولكنها تخطر على القلب فى الإفاقة .

ـ ما دامت وسائل النسيان متوافرة فلا خوف علينا . . .

ـ فلنغرق فيها حتى الأعماق .

ـ إنها تطاردنا ولكنها لن تقبض علينا . !

ـ نجونا من الجنون .

ـ يا له من جنون! .

ـ عليها اللعنة .

ـ صحتك .

ـ صحتك .

ـ عليك أن تحصل لنا على عملة صعبة من السوق السوداء لنغزو السوق الحرة . . .

ـ سيتم ذلك على خير وجه . . . وأظن آن لى أن أذهب . . .

ـ مصحوبا بالسلامة . .

ودعه حتى الباب . وجعل يذرع البهو وهو ينظر فى الساعة . حتى دخل الخادم وهو يقول :

ـ جاءت السيدة .

فقال بلهفة :

ـ أدخلها .

دخلت المرأة تخطف الأبصار بجمالها وبريق اللؤلؤة فوق صدرها . دعاها للجلوس وهو ينحنى لها تحية ، ثم قال :

ـ شرفت الدار .

ـ شكرا .

ـ كنت فى انتظارك لتسليمك القرض كما تم الاتفاق عليه مع زوجك .

ـ ولولا المرض لجاء بنفسه .

ـ أعرف ذلك ، شفاه الله ، ولكن اسمحى لى أن أقدم لك كأسا . .

ـ شكرا . .

وتنهد الرجل وقال بأسى :

ـ إذن لم تعرفينى بعد؟

فحدجته بنظرة غريبة فقال :

ـ أكثر من مرة تقابلنا بحضور زوجك ، ولكنك لم تعرفينى للأسف .

لم تحول عنه عينيها فقال :

ـ لم تتغيرى، أما أنا . .

هتفت :

ـ أنت؟!

ـ أجل!

ـ أى مفاجأة؟! . .

ـ لا تعجبى فأنت العجب .

ولاذت بالصمت دقائق ثم سألته :

ـ أين كنت طيلة ذلك الدهر؟

ـ الحق أنى لا أدرى .

ـ غير معقول .

ـ هو غير معقول حقا ولكنه واقع .

ـ كنت فى مكان ما ولم تعن بالاتصال بى .

ـ كنت فى مكان ما واستحال على الاتصال بأحد .

ـ أين كنت؟

ـ فى الظلام .

ـ لا أفهم .

ـ وليس عندى ما أقوله أكثر من ذلك، دعينا مما مضى وانقضى . .

ـ إنك لا تدرى مدى تلهفى على معرفة ذلك .

ـ وأنا عاجز عن إشباعه!

وتبادلا نظرة كئيبة حتى قال :

ـ وطلبت أنت الطلاق .

ـ اضطررت إلى ذلك .

ـ وتزوجت مرة بعد مرة . .

فلاذت بالصمت، فقال:

ـ لك كمال مروع لا يحتمل..

فقالت بتبرم:

ـ دعنا من سيرته.

فتنهد قائلا:

ـ لذلك لا أجد فائدة فى منح القرض!

ـ ولكنك وعدته!

ـ لن يغير من المصير المقرر.

فسكتت متجهمة فقال:

ـ لا أشك لحظة واحدة فى أنك تؤمنين بقولى كل الإِيمان.

فقالت بحزن:

ـ لن أنعم بالاستقرار فيما يبدو!

ـ لذلك أقترح عليك أن تعودى إلىّ، فعلى الأقل ستجدين عندى ثروة لا تنفد!

ـ غير ممكن، أنت تؤمن بذلك أيضا.

ـ وقد تحدث معجزة!

ـ معجزة؟!

ـ إنى أنتظر طبيبا يُعَدّ فى هذه الشئون معجزة!

فلاحت فى وجهها خيبة واضحة فقال:

ـ لا توصدى باب الأمل وانتظرى..

وطبع على يدها قبلة حارة وهو يودعها.

* * *

٧

وجاء الطبيب فى ميعاده. جاء يحمل حقيبة وعصا غليظة. رحب به بحرارة، ولكن شيئا فى منظره جذب انتباهه فجعل ينظر إليه بدهشة حتى سأله:

- مالك تنظر إلىّ هكذا؟

- الحق أنى أعجب للشبه العجيب بيننا!

- حقا؟

تساءل الطبيب وهو ينظر فى وجهه بإمعان فقال مستدركا:

- أعنى أيام شبابى..

فابتسم الطبيب فقال الرجل:

- نفس الصورة والقوة!

- كل شىء محتمل.

- أكاد أرى فيك نفسى الذاهبة.

- سييسر ذلك من مهمة العلاج.

- يسعدنى ذلك.

وجال الطبيب بعينيه فى أنحاء البهو الفخم الجميل ثم قال:

- حدثنى عن دائك.

- لحظة واحدة حتى أفيق من الدهشة.

وتريث قليلا ثم قال:

- سمعت عن براغتك كثيرا، فهل حقا تستطيع أن تعيد الشباب؟

ـ ذاك أيسر عليّ من التنفس .

ـ ياللسعادة !

ـ ولكن لم ترغب فى استرداد شبابك؟

ـ يا له من سؤال يا دكتور !

ـ يهمنى أن أعرف جوابك .

ـ ولكن الرغبة فى الشباب لا تحتاج إلى تبرير .

ـ أليس لحكمة الكهولة عشاقها؟

ـ لا أظن .

ـ خبرنى على الأقل ماذا فعلت بشبابك؟

ـ ولكن ألا يعد ذلك خروجا عن الموضوع؟

ـ بل هو فى صميمه .

ـ حسن ، استثمرته فى وجوهه كافة .

ـ أبدا ، بددت شطره الأكبر فى الظلام .

ـ أعرفت ذلك؟

ـ أجل .

ـ كيف عرفته؟

ـ هو بعض عملى .

ـ طبيب أنت أم قارئ غيب؟

ـ هما شيء واحد .

ـ على أى حال لم أكن مخيرا .

ـ ومن قال إنه غير مخير فقد أهدر شبابه .

ـ كانت قوة مجهولة لم أعرف كنهها حتى اليوم .

ـ أى جهد بذلت لتعرفها؟

ـ قلت إن البعد عنها غنيمة والسلام .

ـ وهكذا أهدرت شبابك للمرة الثانية .

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قال الطبيب :

ـ أصابك ما أصابك نتيجة لعجز محقق .

ـ عجز؟!

ـ أجل ، فى العمل والحب .

ـ أعرفت ذلك أيضا؟! إنك مذهل حقا .

ـ قلت إنه بعض عملى .

ـ أشهد بأنك عرفت حبى وعملى وضياعى .

ـ وأكثر من ذلك .

ـ أكثر من ذلك؟

ـ أعرف أنك دجال لص!

تراجع الرجل منذعرا فقال الطبيب ضاحكا :

ـ تاجرت بالخطايا ، وحولت ثروتك الهائلة إلى تحف نادرة كما أرى .

اصفر وجه الرجل وارتعشت أطرافه فقال الطبيب :

ـ لا تخف ، أنا طبيب لا شرطى .

ـ سيدى .

ـ أفندم؟

ـ ماذا تروم من وراء معرفتك اللانهائية؟

ـ أروم الشفاء لمرضاى .

ـ أما زلت تنوى علاجى؟

- بل بدأته منذ رأيتك .

- أترد إلى شبابى؟

- بلا أدنى شك .

- وتصون الأسرار التى عرفتها؟

- إنه واجب الطبيب الأول .

فقال بابتهاج :

- لست مرعبا كما يتبادر إلى الذهن .

- سيعود إليك شبابك الحق .

- متى . . متى يا دكتور؟

- قبل أن أغادر بيتك!

- إنك لساحر .

- ولكنك ساحر أيضا؟

- أنا؟!

- استعضت عن الحب بالثروة ثم حولت الثروة إلى طعام، وشراب وتحف .

- هى الرغبة فى النسيان .

- ولكنك كنت تخاف النسيان بقدر ما تتمناه .

- ربما!

- حسن، سيعود إليك الشباب .

وقبض على عصاه بشدة وهو يقول :

- آخر خطوات العلاج هى أصعبها .

وبسرعة جنونية راح يهوى بعصاه على كل ثمين فى البهو . لم يبق على شيء من التحف والصور والمصابيح والثريات والحلى . ولم تكف

يده عن توجيه الضربات حتى أصبحت الجواهر أكواما من الشظايا .
وانزوى الرجل فى أثناء ذلك فى أحد الأركان وهو يرتعد رعبا ويصرخ بصوت مبحوح . وتنهد الطبيب فى ارتياح وقال بهدوء :

ـ عملية من أشق ما صادفنى فى حياتى الطبية .

فصاح الرجل :

ـ أنت مجنون .

ـ أصدق التهانى .

فصاح الرجل :

ـ خربتنى الله يخرب بيتك .

ـ أكرر التهنئة .

ـ أنت مجنون .

ـ يسعدنى أن أسمع أسلوب الشباب يجرى على لسانك .

وتناول حقيبته ومضى نحو الباب وهو يقول :

ـ عليك الآن أن تصون شبابك بعد أن أرجع إليك بمعجزة وأن تنفقه فيما يليق بروعته ، وإذا حدثت مضاعفات غير متوقعة فتلفن إلىّ من فورك .



٨

رقد ذاهلا بين الخرائب . ضاعت الحبيبة وهلك ما يمكن أن يتسلى به عنها . لم يبق إلا الفقر والتشرد والهيمان المحروم . كان يفكر فى ذلك عندما تناهى إليه صوت أجش وهو ينادى «روبابيكيا» . نهض متثاقلا

فناداه من النافذة. جاء الرجل فنظر فى أنحاء البهو بدهشة ثم نظر إلى صاحبها متسائلا، ولكن هذا قال له متجاهلا تساؤله الصامت:

ـ افحص هذه البقايا واختر ما يصلح لك منها.

ـ أوقع زلزال فى مسكنك؟

فقال واجما:

ـ اختر ما يصلح لك.

ـ الشظايا لن تنفعنى بطبيعة الحال، ولكنى آخذ ما يمكن إصلاحه أو تهيئته بطريقة ما.

ـ ليكن.

وانكب التاجر على بقايا التحف المتناثرة يأخذ واحدة من بين كل عشرين وسرعان ما كف وهو يقول:

ـ لم يبق شىء ذو قيمة.

ـ منذ لحظات كان كل شىء محتفظا بقيمته.

فنظر إليه التاجر فى ارتياب وسأله:

ـ هل زارك الطبيب؟

فسأله بدوره دهشًا:

ـ من أدراك بذلك؟

ـ قصته أصبحت مشهورة.

ـ وأنا الذى دعوته بنفسى!

ـ هو على أى حال لا يزور إلا من يدعوه بنفسه.

ـ ولا فائدة من الندم!

ـ ولا فائدة من الندم.

ـ لعلك دعيت إلى بيوت أخرى خربها وذهب؟

ـ يكاد عملى هذه الأيام يقتصر على شراء مخلفاته .

ـ الحق أنى فى مسيس الحاجة إلى نقود .

ـ لن تحصل على شىء يذكر .

ـ افحص من جديد .

ـ لا فائدة ، ولكن هناك فكرة لا بأس بها .

فتساءل الرجل بلهفة :

ـ ما هى؟

ـ توجد تحفة قديمة لم يصبها التدمير .

ـ أين هى؟

فأشار إليه قائلا :

ـ هى أنت!

ـ أنا؟! . . أجننت؟

ـ هى التحفة القديمة الوحيدة التى لم تمس .

ـ أتريد أن تشترينى كالأشياء القديمة؟

ـ خير من الموت جوعا .

ـ يا لك من مهذار!

ـ لا أعرف الهذر فى العمل .

ـ اغرب عن وجهى .

ـ خير من أن تموت جوعا .

ـ سأبدأ من جديد .

ـ لعلك تأمل فى مساعدة شريكك الغنى؟

ـ أتعرفه أيضا؟

- حكايتكما ذائعة فى سوق الكانتو!

- هلكنا!

- كلا فإن أهل المهنة الواحدة لا يخون بعضهم بعضا.

- إذن فلأنتظره.

- ولكنه قبض عليه فى السوق السوداء.

- يا للكارثة!

- لم يبق لك إلا أن توافق على رأيى.

- إنى أحتقر رأيك.

- سأنفذه أردت أم لم ترد.

- أتركن إلى القوة اطمئنانا إلى ضعفى وشيخوختى؟

- إنى أتعامل عادة مع الأشياء القديمة.

- سأقاومك والويل لك.

- افعل إن استطعت.

وتقدم منه بثبات فرفعه إلى كتفه كطفل، ومضى به إلى الخارج غير مبال بحركات ساقيه ولا بقبضاته الواهنة المنهالة فوق ظهره.



٩

دفع التاجر العربة والرجل راقد فيها بين الأشياء القديمة وكان يصيح بصوته الأجش بين آونة وأخرى «روبابيكيا». وبلغ طريق النيل لدى هبوط المغيب، وبدا الرجل مستسلما ولكن عينيه تحولتا تلقائيا نحو

كورنيش النيل . وخطف بصره شيء يلمع . أحدّ بصره فرأى اللؤلؤة تتراقص فوق صدر المرأة الفاتنة . كانت تسير على مهل كأنما تبحث عن رجل جديد . ودبت فيه حيوية من لا شيء فانتظر اقترابها على لهف . ولكنها حاذته ومرت به دون أن تلتفت نحو العربة . مضت في الاتجاه المضاد تضيء لؤلؤتها قتامة المغيب .

الرجل الذى فقد ذاكرته مرتين

لم يبق فى الحديقة الصغيرة أحد سواه. ذهب الذين تناولوا عشاءهم سواء فى الحديقة أم فى البهو الصغير المتصل بها من الداخل. أكثرهم صعدوا إلى حجراتهم فى الفندق، وقلة مضت فى الطريق الذى يشق الخلاء. انتظر النادل أن يذهب هو أيضًا ليخلى الحديقة من الكراسى والموائد ولكنه لم يذهب، ولم يبد استعدادًا للذهاب. جلس وحده يستقبل الهواء الجاف المنعش الهابط من سفح الجبل فيما وراء الخلاء. ولم يجد النادل بدا من نقل الموائد والكراسى إلى الداخل عدا مائدته وكرسيه، ثم حام حوله كأنما ليذكره بأنه آن له أن ينصرف. وتجرأ أكثر فوقف أمامه وهو يسأل:

- هل من خدمة؟

فسأله بدوره:

- أتوجد فى الفندق حجرة خالية؟

- أعتقد ذلك، تفضل بمقابلة صاحب الفندق.

- تلك الفتاة فى نهاية البهو؟

- كلا، إنه فى الداخل فيما يلى البهو.

- ومن تكون الفتاة إذن؟

- مديرة المطعم وابنة المدير.

ـ شكراً.

ولما لم يزايل مكانه قال النادل:

ـ هلا تفضلت بالذهاب لأتمكن من نقل المائدة؟

ـ معذرة، يلزمنى بعض الوقت لأستعيد نشاطى من تعب طارئ.

ذهب النادل فلبث وحده كما كان. ونظر نحو الفتاة كما فعل مرارا وهو يتناول عشاءه. وبادلته النظر أيضا. وقال لنفسه:

ـ ليتها كانت هى صاحبة الفندق.

ثم بنبرة منتشية:

ـ ما أجمل أن يحوز الإنسان فتاة حسناء مثلها.

ومضى الوقت وهو لا يريد أن يتحرك. وإذا بصاحب الفندق يمضى نحوه على حين وقفت كريمته فى نهاية الممر الموصل بين البهو والحديقة رغبة فى إشباع حب استطلاعها.

وقال صاحب الفندق للفتى:

ـ نحن فى خدمتك.

فقال الشاب بارتباك:

ـ شكرا.

ـ أخبرنى النادل أنك تريد حجرة خالية.

ـ أجل أريد حجرة للمبيت.

ـ تفضل بالدخول للقيام بإجراءات الحجز.

ـ إن أردت الحق...

ـ أفندم؟

ـ لا أدرى فى الواقع ماذا أقول!

ـ ولكن لديك بلا شك ما تقوله.

ـ لا أدرى كيف أقول .

اقتربت الفتاة أكثر حتى وقفت جنب أبيها ، وقال الرجل :

ـ ولكن لا مفر من الكلام!

ـ أمهلنى قليلا . .

ـ لعله ليس معك نقود؟

ـ معى من النقود ما يكفى وزيادة .

ـ إذن فما المشكلة؟

ـ مشكلتى أننى مرهق جدا . .

ـ ولكنك تبدو فى صحة جيدة . .

ـ الحق أننى لا أعرف من أنا ! !

ـ ماذا قلت؟ !

ـ لا أعرف من أنا .

ـ أأنت مالك لقواك العقلية؟

ـ أعتقد ذلك .

وسألته الفتاة :

ـ كيف لا تعرف من أنت؟ !

ـ لا أعرف لى أصلا ولا هوية ولا اسما . .

فسأله الأب :

ـ كيف وُجدت فى حديقة فندقنا؟

ـ وجدت نَفسى فى الخلاء ، الجبل ورائى ، ومبنى وحيد أمامى هو الفندق ، ولم أجرؤ على التوغل فى المدينة فتسللت إلى حديقة الفندق . .

ـ أليس معك بطاقة شخصية؟

ـ كلا، لعلى سرقت . .

ـ ولكن معك نقود كما تقول؟

ـ وجدتها ملفوفة فى حزام حول بطنى . .

ـ أليست نقودك؟

ـ هذا ما استنتجته . .

تبادلوا النظرات فى صمت حتى قال الأب :

ـ ستتذكر أشياء بلا ريب . لابد أنك تذكر من أين أتيت؟

ـ لا أدرى .

ـ أين كنت ذاهبا؟

ـ لا أدرى .

ـ أسرتك؟

ـ لا أدرى .

ـ عملك؟

ـ لا أدرى .

وسألته الفتاة :

ـ ألك زوجة؟

ـ لا أدرى !

فتفكر الرجل مليا ثم سأله :

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

ـ لا فكرة لى بعد .

فتفكر الرجل مرة أخرى ثم قال :

ـ لا شك فى أنك ستجدُّ فى البحث عن أصلك وفصلك . .

ـ هذا هو المعقول .

ـ كأن تنشر صورتك فى الجرائد؟

ـ تفكير صائب .

ـ وهو ما سيفعله المهتمون بأمرك . . .

ـ أعتقد ذلك .

ـ هى مشكلة نادرة حقا ، ولكنها سرعان ما تحل بنهاية سعيدة .

ـ أرجو ذلك .

وسألته الفتاة برقة :

ـ ترى بم تشعر؟

ـ بأننى لا شىء ينحدر من لا شىء ، ماض إلى لا شىء .

وتبادلوا النظرات مرة أخرى ، ثم قال الشاب :

ـ سأذهب أول ما أذهب إلى الطبيب .

ـ عين الصواب .

ـ ولكن يلزمنى مأوى مع إعفائى من الإجراءات المتبعة .

فقال الأب :

ـ إنها مغامرة قد تدفع بى إلى س و ج .

ـ وقد تمر بسلام .

ـ الله المستعان .

ـ سأذكر لك صنيعتك ما حييت .

وأرسله إلى حجرة مع الفراش ووقف مع ابنته يتابعانه فى سيره فى ذهول صامت . وتبادلا نظرة طويلة ، ثم قال الأب :

ـ عجيبة تلك الحال لدرجة تعز على التصديق .

فتمتمت الفتاة :

ـ ولكنه صادق فى مرضه .

ـ وهذا هو العجب .

ـ أجل . .

ـ ترى هل أخطأت فى قرارى؟

فقالت بهدوء :

ـ إنك لا تخطئ أبدا . .

* * *

٢

كانت شرفة الفيلا ـ فوق الجبل ـ تسبح فى ظلام دامس . وكان يوجد بها رجلان . بدا الرجلان شبحين جلس أحدهما فوق كرسى هزاز ومثل الآخر بين يديه . وسأل الجالس :

ـ ماذا وراءك؟

فقال الآخر :

ـ ساقته قدماه إلى الفندق !

ـ لا أعجب لذلك .

ـ وهو على حال من العدم .

ـ لا جديد فى ذلك .

ـ بل حال جديد تماما .

ـ حقا؟

ـ بالدقة نطقت .

ـ كن يقظا وسجل كل شيء .

ـ سمعا وطاعة .

* * *

٣

تفرق النزلاء بعد العشاء فلم يبق في الإدارة سوى الأب والفتاة والشاب. وكان القلق بارزا في قسمات الشَاب، فقال له الأب بنبرة رثاء :

ـ لم تستقر بعد؟

فقال الشاب :

ـ نشرت صورتي في الصحف ولم يسع ورائي أحد!

ـ ثمة شيء طيب هو أن الشرطة لم تسع وراءك كذلك!

ـ وأكاد أجزم بأنني لن أصبر على أسلوب العلاج .

ـ طويل ومعقد؟

ـ وكثير التكاليف .

وبعد صمت قصير عاد يقول :

ـ وبت أشعر بأنني حمل ثقيل عليك .

ـ كلا .

ـ حقا؟

ـ أصبحنا فيما أعتقد أصدقاء .

ـ الحق أنكم كل شيء لي في هذه الدنيا .

ـ ولم أعد أخشى مسئولية من إيوائك .

وقالت الفتاة .

ـ وستعرف نفسك عاجلا أو آجلا .

فقال بشيء من الحياء :

ـ يخيل إلى أننى لن أكتشف شيئا ذا قيمة .

ـ إنك رشيد ولا حاجة بك إلى أحد .

ـ ولكن هل أمضى وقتى كله فى الانتظار؟

فقال الأب :

ـ يحسن بك أن تفكر فى الحاضر والمستقبل .

ـ قبل أن تنفد النقود؟

ـ أجل . .

ـ فعلى إذن أن أجد لنفسى عملا .

ـ ماذا تحسن من الأعمال؟

ـ أجرب .

فتفكر الأب مليا وقال :

ـ عندى فكرة .

فنظر الشاب إليه مستطلعا فقال :

ـ الفندق يحتاج إلى تجديدات . .

ـ ماذا تعنى يا سيدى؟

ـ أقترح أن تشترك فيه بمالك وأن تعاون فى أعمال الحسابات .

ـ فكرة طيبة .

ـ لنبدأ إذن .

ـ ولكنى أخشى أن نكتشف أن المال هو مال للغير .

ـ مضى وقت منذ إعلانك عن نفسك وهو يكفى لإبراء ذمتك .

فالتفت الشاب نحو الفتاة وسألها :

ـ ما رأيك؟

ـ أو افق أبى على رأيه .

ـ عظيم .

فقال الأب :

ـ اتفقنا . .

ـ آن لى أن أصارحك برغبة تضطرم فى نفسى .

ـ إنى مصغ إليك .

فقال بعد صمت قليل :

ـ أود أن أطلب منك يد كريمتك .

ـ لا تتعجل الأمور .

ـ انتظرت من الشهور ما فيه الكفاية .

ـ ربما كنت متزوجا .

ـ لم يسع إلى أحد .

ـ لقد تبادلنا الرأى على أوسع نطاق وأنا مضطر الآن إلى الذهاب إلى مشوار عاجل .

قال الرجل ذلك وذهب . وقف الشاب والفتاة يتبادلان النظر . سألها :

ـ أأنت مترددة مثل أبيك؟

فقالت بهدوء عذب :

ـ أنت تعرف رأيى تماما .

ـ أترغبين أن أنتظر حتى يتكشف لى الماضى؟

ـ لا يهمنى أن تهتدى إلى ماضيك أو أن يهتدى ماضيك إليك . .

ـ أنا سعيد ولكن القلق يطاردنى .

ـ وتحبنى أليس كذلك؟

ـ لا يربطنى بهذا المكان إلا حبك .

ـ حسبنا ذلك .

ـ سأعمل وأتزوج ولكن والدك متردد . .

ـ كلا ، إنى أعرف والدى تماما .

ـ يخيل إلى أنى نلت ثقته . .

ـ أنت أهل للثقة .

ـ لندع الله أن يهيئ لنا السعادة .

ـ لندعه من صميم قلوبنا .

* * *

٤

وفى شرُفة الفيلا ـ فوق الجبل ـ جرى الحديث فى ظلام دامس . سأله الشبح الجالس فوق الكرسى الهزاز :

ـ ما وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه :

ـ آواه صاحب الفندق .

ـ رجل طيب وداهية ماكر .

ـ وعمل كل ما يمكن عمله للاهتداء إلى هويته .

ـ ولم لم ينظر الفتى فى نفسه مباشرة؟
ـ إنهم يفضلون الوسائل غير المباشرة .
ـ وثار فضول الناس؟
ـ لم يعد يثير فضولهم شىء .
ـ حسن .
ـ وظل مجهولا كاللغز .
ـ تعنى فى نظر نفسه؟
ـ طبعا . .
ـ وكيف مضت القصة؟
ـ ظهر الحب .
ـ من جديد؟
ـ أجل ، وفى الوقت نفسه تطلع الأب إلى نقوده!
ـ يعز على اللص أن يُسْرَق!
ـ إنه من رجال الأعمالَ يا سيدى .
ـ وهل يوجد فرق هناك بين اللص ورجل الأعمال؟
ـ إنهم هناك يفرقون بينهما .
ـ وبعد؟
ـ اشترك الفتى بماله فى الفندق وتزوج من الفتاة . .
ـ طريفة جدا هذه اللعبة .
ـ الحب ، والعمل يتسمان!
ـ والحب عند المجهول من ذاته؟
ـ لا يكاد يخطر له على بال إلا إذا انفرد بنفسه . . .
ـ وهل ينفرد بنفسه كثيرا؟

ـ زوجته لا تحب ذلك .

ـ ماكرة مثل أبيها .

ـ الحق أنها تحبه وتحب الفندق .

ـ الأمور تتعقد والأمل يتضاءل .

ـ ولكنه موجود .

ـ كن يقظا وسجل كل شىء .

ـ سمعا وطاعة .

* * *

٥

اجتمعت الأسرة حول مائدة فى الحديقة الصغيرة، الأب والزوج والزوجة . تلقت وجوههم ظلال المغيب وقد غيرها على تفاوت تقدم الزمن . وكان الأب يقول :

ـ لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به .

فقالت الزوجة :

ـ ربنا يطول عمرك يا أبى .

وقال الزوج :

ـ ستتحسن صحتك .

فقال العجوز :

ـ السعيد من يذهب فى هذا الزمن .

فقالت الزوجة :

ـ ليست الأحوال بذاك القدر من السوء .

فتساءل الزوج :

ـ أيمكن أن يوجد ما هو أسوأ؟

فقالت الزوجة محتجة :

ـ يوجد دائما ما هو أسوأ .

فقال الزوج متهكما :

ـ ما أجمل حكمتك!

وقال الأب :

ـ كانت الحياة على أيامنا أبسط وأهنأ .

فقال الزوج :

ـ ثمة شكوى دائما من الحاضر وحسرة على الماضى ، ولكن الماضى كان حاضرا يوما ما . .

فقالت الزوجة :

ـ لا نكاد ننعم بلقاء ، نحن نركض كأن سياطا تلهب ظهورنا . . .

فقال الزوج :

ـ الويل لمن يستسلم لساعة من الراحة .

ـ إنى أعمل معك بقوة عشرة رجال .

ـ وأنا أعمل بقوة عشرات من الخيل .

فقال الأب :

ـ كان العمل أمتع والثمرة أشهى!

فقال الزوج :

ـ نحن نحمل فوق أكتافنا سبعة من الأبناء . .

ـ حملنا أكثر وسعدنا بهم . .

ـ ألا تدرى ماذا يعنى ابن واحد فى هذه الأيام؟

فقالت الزوجة :

ـ هكذا حال الناس جميعا . .

ـ كلنا فى الهم شخص واحد .

فقال الأب :

ـ كم حسدنا الناس من أجل هذا الفندق .

فقال الزوج :

ـ اليوم هم ينظرون لنا برثاء .

وقالت الزوجة وهى تتنهد :

ـ امتلأ طريق الخلاء بالفنادق . .

ـ وكلها قامت على طراز حديث .

فسأله الأب :

ـ أليس لديك احتياطى كاف لتجديد الفندق؟

ـ لم يعد التجديد بالحل الناجع !

ـ فما الحل إذن؟ !

ـ أن يهدم ويبنى من جديد !

ـ ومن أين لك المال اللازم لذلك؟

ـ لا خيار لنا وإلا تحول الفندق على أيدينا إلى وكالة .

ـ فيم تفكر؟

ـ فى الاقتراض إن أمكن .

فقالت الزوجة :

ـ لا تكن متشائما .

ـ لا وقت عندى للتشاؤم .

ـ إنك تنسى أشياء مهمة .

ـ حقا؟

فقال الأب :

ـ ينقصكم شيء مهم كان متوافرا لدينا .

ـ ما هو يا سيدى؟

ـ الإِيمان .

ـ حتى هذا لا ينقصنا .

ـ لا وقت لديك للإِيمان ، أتدرى ماذا فعل الإِيمان لنا؟

ـ ماذا فعل؟

ـ عثر جدى الفقير ذات يوم فى صحن داره على كنز مدفون!

ـ كنز مدفون؟!

ـ كان يدعو الله أن يرزقه فرزقه ، وشيد بمال الكنز أول فندق فى هذه البقعة . .

ـ كان عليه أن يبحث عن صاحبه فيسلمه له!

ـ كان الكنز هدية من الله إليه .

ـ القانون اليوم يرى قبول مثل هذه الهدية نوعا من النهب!

ـ اللعنة! إنكم تمارسون النهب بألف وسيلة . . .

ـ معذرة يا سيدى ، أتريدنى على أن أسأل الله الرزق حتى أعثر على كنز مدفون؟

ـ ولن تعثر عليه مهما فعلت .

ـ حقا!

ـ لأن الإِيمان لا يفتعل .

فنظر الزوج إلى زوجته وسألها :

- هذا ما تعقدين به الأمل؟

فأجابت ببرود :

- ذاك مجد لم نعد له أهلا .

- حسن .

- ولكنا نملك ثروة أخرى .

- حقا ؟

- أبناءنا

- إنهم الهم الذى قصم ظهرى .

- ولكنهم غدا سيسعون إلى أصحاب الفنادق الجديدة بأسباب للنسب والعمل

- ياله من خيال ! . .

- سيتجسد حقيقة صلبة .

- ياله من خيال طموح .

- بل علينا أن نيسر لهم سبيل العلم فى أعلى درجاته .

- أخشى أن نموت فى أثناء ذلك جوعا .

- إنه سباق مرير ولكن الفوز فيه للصابرين .

فقال الأب :

- ينقصكما الإيمان .

فقال الزوج :

- لا مجال اليوم للحلم بالكنوز المدفونة .

- لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به .

وقام بصعوبة، ثم مضى إلى الداخل وهو يقول :

- السعيد حقا من يرحل عن هذه الدنيا .

وما لبثت الزوجة أن ذهبت أيضا ولكنها رجعت بعد دقائق بزجاجة بيرة مثلجة وقدحين. ملأتهما والظلام يتجسد متمتمة:

ـ أنعش فؤادك.

ولكنه قال:

ـ لن يكفينى الاحتياطى كله لبناء دور واحد جديد.

ـ أنعش فؤادك، ألا تسمعنى؟

ـ وماذا يغنى دور جديد واحد فى فندق قديم؟

ـ أنعش فؤادك، ألا تسمعنى؟

ـ والأساس القديم لن يحتمل مزيدا من الأدوار.

ـ ألا تريد أن تنعش فؤادك؟

ـ أرى الفنادق الجديدة فتقتلنى الحسرة.

ـ يلزمك قدر من الاسترخاء، فأنعش فؤادك.

ـ كيف تقدَّمهم الحظ وتخلف عنا؟

ـ لا تريد أن تصغى إلى.

ـ إما فندق جديد وإما الجوع.

ـ لدينا الإرادة ولدينا الأبناء.

ـ أنت تحلمين مثل أبيك!

ـ لدينا كنوز غير مدفونة..

وأرادت أن تداعب يده ولكنه نهض قائما وهو يقول:

ـ آن لى أن أذهب لمقابلة الرجل.

وذهب.

٦

لبثت الزوجة وحيدة حتى رأت رجلا قادما من باب الحديقة. انحنى لها بأدب قائلا:

ـ مساء الخير يا سيدتى.

ـ مساء الخير.

ـ اسمحى لى بأن أقدم لك نفسى: أنا صاحب الفندق الكبير.

ـ أهلا وسهلا، تفضل بالجلوس..

جلس الرجل وهو يرمق بعينيه القدحين المترعين، ثم تساءل:

ـ هل ينضم إلينا أحد؟

ـ كلا، كان زوجى هنا ثم ذهب..

ـ ذهب لمقابلة صاحب فندق النور.

ـ كيف علمت بذلك؟

ـ نحن نعرف ما يهمنا يا سيدتى.

ـ همة مشكورة!

ـ لعله نسى أن يشرب قدحه؟

ـ ما أهمية ذلك؟!

ـ رجال الأعمال ينسون كثيرا من الشئون السارة!

ـ أنت أدرى بذلك..

ـ ولكن الناجحين منهم لا يهملون شيئا!

فقالت بشىء من الانفعال:

ـ نحن أيضا من الناجحين . .

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

ـ ولكن لم شرفتنا بزيارتك ما دمت تعلم أن زوجى غائب؟

ـ لأقابلك أنت يا سيدتى .

ـ ولم يا سيدى .

ـ الحق أنى أؤمن بتفوق حكمة النساء .

ـ إن كنت تقصد المقارنة بينى وبين زوجى فإنى أرفض ثناءك . .

ـ لم أحضر لأثير خلافا . .

ثم نظر إلى قدح البيرة وتساءل :

ـ أتسمحين لى بأن أحل محل زوجك؟

ـ لا يروقنى تعبيرك !

ـ معذرة ، جميع رجال الحى يعجبون بك .

ـ أجئت يا سيدى لتعرب لى عن إعجابك؟

ـ جئت يا سيدتى لأشترى الفندق .

ـ فندقنا؟

ـ إنه الفندق القديم الوحيد فى المكان كله .

ـ يا له من اقتراح لم أتوقعه أبدا !

ـ زوجك يسعى إلى عقد قرض ، ولن يوفق فى مسعاه .

ـ لمه؟

ـ لأن أحدا لا يريد أن يخلق منه منافسا له خطره .

ـ لا أحب أن أناقش هذا الموضوع فى غيابه .

ـ البيع أفضل ، إنى أخاطب حكمتك .

ـ لا أرى رأيك .

ـ إنه فندق قديم غير قابل للسكنى، ولا فائدة ترجى من تجديده، أما ثمنه فيصلح للاستثمار.

ـ إنه حياتنا ومستقبلنا.

ـ يمكن التفاهم على إيجاد عمل لك ولزوجك فى الفندق الجديد.

ـ لا تتكلم كما لو كان الاتفاق قد تم.

ـ إنى أخاطب رأس الحكمة.

ـ الفندق الجديد سيقام بأيدينا وأموالنا.

ـ لا مال لكم، وأبناؤكم ما زالوا يتلقون العلم.

ـ دعنا وشأننا يا سيدى.

ـ توجد مصالح مشتركة.

ـ لا أظن.

ـ كأننى أخاطب زوجك العنيد.

ـ نحن شخص واحد يا سيدى.

ـ يحسن بى أن أعترف لك بما فى نفسى.

ـ ترى ماذا فى نفسك؟

ـ لا أهمية فى الواقع للفندق.

ـ ولكنه على رغم قدمه ذو موقع ممتاز.

ـ يهمنى أكثر أن أنشئ علاقة مودة إنسانية.

ـ حقا؟!

ـ صدقينى، المال لا ينقصنى..

ـ حقا؟!

ـ ما أنا فى حاجة إليه حقا هو الحب!

ـ انتظر رجوع زوجى لتطارحه الغرام.

ـ ولكنى أؤمن بالمرأة . .

ـ لا أشاركك رأيك يا سيدى .

ـ على أى حال قد فهم كلانا صاحبه ، ولدينا من الوقت ما يكفى للتفكير واتخاذ القرارات .

وقف الرجل باسما . شرب قدح البيرة حتى الثمالة وأحنى رأسه ثم ذهب .

* * *

٧

جرى الحديث فى الظلام الذى يلف شرفة الفيللا فوق الجبل . سأل الشبح الجالس فوق الكرسى الهزاز :

ـ ماذا وراءك؟

فأجاب الشبح الماثل بين يديه .

ـ تعقدت الأمور .

ـ ماذا يفعل صاحبنا؟

ـ يعمل بجنون ، يحارب فى ألف ميدان .

ـ وامرأته؟

ـ تشاركه فى كل خطوة .

ـ والآخرون؟

ـ يعملون للاستيلاء على فندقه وامرأته .

ـ أتعلم هى بنواياهم؟

ـ بكل وضوح، وبكل قوة ترفضها .

ـ وهل يعلم الزوج؟

ـ بذكائه علم، وبصراحة زوجته .

ـ ولم أخبرته؟

ـ لتؤكد له طهرها ولتحيى حبها فى قلبه .

ـ ألم يعد يحبها؟

ـ لا وقت عنده للحب .

ـ ألم يعد للتفكير فى ماضيه المجهول؟

ـ لا وقت عنده لذلك، غير أنه قال لزوجته مرة إنه ربما لو عادت إليه ذاكرته لوجد نفسه ابنا لمليونير ! ولكنها سخرت منه قائلة إنه يحلم بالكنز مثل أبيها !

ـ متى ـ فى تقديرك ـ يرجع للتفكير فى أصله؟

ـ أى أصل تقصد يا سيدى؟

ـ يالك من أحمق !

ـ حسن يا سيدى، إن ذلك يتوقف على نجاحه فى مهمته .

ـ لا نهاية لشىء هناك .

فأمسك الرجل عن التفوه بكلمة حتى قال الجالس :

ـ كن يقظا وسجل كل شىء .

ـ سمعا وطاعة يا سيدى . .



٨

فى الحديقة الصغيرة جلس الزوجان وقد تقدم بهما العمر على حين وقف أمامهما شاب مفعم حياة وقلقا. وكان الشاب يقول:

- انزعجت جدا لدى قراءة رسالتك..

فقالت الزوجة:

- قدرت ذلك يا بنى..

- أخذت أول طائرة..

فقال الزوج:

- كان على أن أستطلع رأيك..

وقالت الزوجة:

- على رغم علمنا بأنك عاكف على تحضير رسالتك.

فسأل الشاب:

- هل الأمر سيئ لهذا الحد يا أبى؟

- هو ذلك يا بنى...

وقالت الزوجة بنبرة باكية:

- كان الجوع ضمن الأسباب التى أدت بأختك إلى الوفاة..

- ولكن الفندق لا يخلو من زبائن.

فقال الزوج:

- اضطررنا إلى تخفيض إيجار الحجرة، لا يفى الربح بالضرورات، الأمور من سيئ إلى أسوأ..

ـ والاحتياطى يا أبى ؟
ـ استهلك فى سد نفقات المعيشة .
وتبادل الزوجان نظرة سريعة ، غير أن الزوج خاطب ابنه قائلا :
ـ فى غمار ذلك النزاع الأليم فقدنا أخويك العزيزين . .
فهتف الشاب :
ـ شد ما حزنت عليهما . .
ـ الكلاب يضيقون علينا الخناق مستعملين أخس الوسائل وأقساها . .
وقالت الزوجة بنبرتها الباكية :
ـ ذات يوم عثرنا على جثة أخيك عند سفح الجبل . .
ـ وماذا كشف التحقيق يا أماه؟
ـ قيدت القضية ضد مجهول . .
وقال الزوج :
ـ وقد مات جدك حزنا .
وقالت الزوجة :
ـ وقتل أخوك الآخر وهو يحاول الانتقام لأخيه .
ـ الويل للقتلة !
فقال الزوج :
ـ هكذا نحن محاصرون بالجوع والموت .
وقالت الزوجة :
ـ لذلك فكر أبوك فى بيع الفندق والهجرة إلى مكان آخر .
فهتف الشاب :
ـ لن يحدث ذلك أبدا .

ـ والحل يابنى؟

ـ لا أصدق أنكما قررتما ذلك، لعلكما تطرحان الفكرة للمناقشة؟

ـ حتى لو صح ذلك لما تغيرت النتيجة.

ـ يلزمنا المزيد من الصبر.

ـ العمر يتقدم بنا كما ترى.

وقال الزوج:

ـ وعليك أن تعرف كل شىء، فقد ورطنا النزاع فى أعمال عنف لم تجر لنا على بال.

ـ أعمال عنف؟!

ـ أجل يا بنى. لم نعد أبرياء فى نظر القانون، لا أنا ولا أمك!

وقالت الزوجة:

ـ قد ينكشف أمرنا فى أى لحظة.

ـ يا للعنة..

ـ هذه هى حياتنا بكل مرارتها..

وقال الزوج:

ـ وسيدفعنا الإصرار على البقاء إلى مزيد من الجرائم.

وتساءلت الزوجة:

ـ فما رأيك الآن يا بنى؟

نفخ الشاب، تريث قليلا، ثم قال:

ـ علىّ أن أكاشفكما بأخطر نبإ فى حياتى.

ـ ما هو يا بنى؟

ـ إذا صبرنا بضع سنوات فسوف يمكننى إعادة بناء الفندق بلا تكاليف تذكر.

- أنت؟ !
- أجل، وذلك هو موضوع رسالتى.
- لعله أمل، مجرد أمل؟!
- بل أكثر من ذلك فقد كشفت عن حقائق مؤكدة.
- وإذا أخطأ تقديرك؟
- علينا أن نقبل المغامرة بأى ثمن.
فنظرت الزوجة إلى زوجها وقالت:
- هذا عامل جديد لم يجر فى تقديرنا.
فقال الزوج:
- ولكنه كالحلم.
فقال الشاب:
- بل إنه أنجع فى إعادة بناء الفندق من أعمال العنف نفسها.
- سنضطر إلى ارتكاب المزيد منها ونحن ننتظرك.
- إذن فعلينا بالصبر وارتكاب المزيد من العنف.
- إنك تذكرنا بحماس أخويك.
- ولكنى آمل فى نهاية أخرى.
فقالت الأم:
- هذا عامل جديد لم يجر فى تقديرنا.
فقال الأب:
- أرى أنك تميلين إلى رأيه.
- لا أنكر ذلك.
فقال الشاب بحماس:
- يجب أن أعود غدا بالطيارة.

فقالت الأم :

ـ سافر بالسلامة . .

ـ سأسافر غدا .

ـ لتصحبك السلامة وليكتب لك التوفيق .

* * *

٩

بقى الزوجان جنبا إلى جنب وساد الصمت . وجعلت المرأة تختلس النظر إلى الرجل حتى خرقت الصمت قائلة :

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه .

فهز رأسه بالإيجاب دون أن ينبس ، فعادت المرأة تقول :

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه .

ـ أنت متحمسة لرسالته التى لا تعرفين عنها شيئا .

ـ ولكنى أعرفه وأومن به .

ـ حسن .

ـ ولكنك مترددة فيما يبدو لى .

ـ خانتك الفراسة .

ـ لا أحد يعرفك كما أعرفك .

ـ هكذا كل زوجين أمينين .

ـ لا تسخر يا رجل .

ـ ولكنى جاد جدا .

- أنت متردد .

- لا عيب فى ذلك إذا أخذ بمعنى التفكير .

- وتضمر غير ما تظهر .

- ماذا تعنين يا امرأة!

- قلت إن الاحتياطى استهلك فى سد نفقات المعيشة؟

- قلت ذلك حقا .

- ولكنه لم ينفد بعد!

- لم يبق منه ما ينفع لشىء .

- قد ينفع من يفكر فى الفرار!

- ماذا تعنين؟

- أنت تدرك ما أعنى .

- إنى أفكر فى شىء واحد هو سلامة الأسرة .

- سلامة الأسرة جزء لا يتجزأ من سلامة الفندق .

- تحت هذا الشعار ضحيت بما ضحيت .

- وعليك أن تستوصى بالمزيد من الصبر .

- المزيد من الصبر؟!

- ولكنك تضمر أمرا آخر !

- أى أمر يا امرأة؟

- لعله الهرب .

- الهرب؟!

- إنى أستنتج مستقبلك من مقدمات ماضيك .

فسأل وهو يضحك :

- هل سبق لى الهرب؟

ـ نعم .

ـ جميل أن نضحك فى غمرة هذا الغبار الدامى .

ـ من أين لى بالضحك؟ !

ـ إذن فخير ما نفعله أن نغير الموضوع .

فرمته بنظرة قاسية وقالت :

ـ يبدو أنه آن لى أن أصارحك .

ـ بماذا؟

ـ دفاعا عن أسرتك ، دفاعا عن نفسك ، سأصارحك بما كتمته طيلة السنين .

ـ ألديك سر لم أعرفه؟

ـ نعم .

ـ وما هو يا ترى؟

فقالت بهدوء رهيب :

ـ ماضيك المجهول .

فاشتعل اهتماما مباغتا وتساءل :

ـ ماضىَّ المجهول؟

ـ الذى نسيته ، أو الذى تصر على أن تنساه .

ـ ماذا تعنين؟

ـ أنت تجهل ماضيك كما تجهل شخصك الحقيقى .

ـ ذاك تاريخ مشهور .

ـ ولكنى أعرفه .

ـ أنت؟ !

ـ كما كان أبى يعرفه!

ـ أأنت جادة؟

ـ كل الجد .

ـ منذ متى؟

ـ منذ وجدناك فى هذه الحديقة .

ـ ياله من عبث!

ـ بل هو الجد كل الجد .

ـ أتتوقعين أن أصدقك؟

ـ أقسم لك بروحَىْ ابنىّ .

فهتف فيما يشبه الفزع :

ـ رباه!

ـ أجل .

ـ انتشلينى من هذه الغيبوبة .

ـ سأفعل حتى لا تقع فى الخطإ مرة أخرى .

ـ من أنا؟!

ـ أنت زوجى .

ـ إنى أسألك من كنت؟

ـ كنت زوجى أيضا قبل أن تفقد ذاكرتك!

نظر إليها بذهول فقالت :

ـ كنت قبل ذلك ربيب أبى ، وجدك غلاما ضالاً .

ظل ينظر إليها بذهول ، فقالت :

ـ ولم تكن لك فكرة عن والديك فرباك وشغلك فى الفندق ثم تزوجنا .

مالبث ينظر إليها ذاهلا ، فقالت :

ـ وذات يوم سرقت الخزانة وهربت مع راقصة .

ـ ماذا تقولين ؟ !

ـ تذكر ، تذكر ، سرقت الخزانة وهربت مع راقصة .

ـ رأسى يدور .

ـ وكنت كما تكون اليوم مزيجا من التمرد والتمرد على التمرد فعذبتها (الراقصة) بالقدر الذى أردت أن تعذب به نفسك .

ـ رباه . . أى عالم هذا؟ !

ـ فاضطرت هى إلى الهرب وسرعان ما فقدت ذاكرتك .

ـ آه . .

ـ وراقبك أبى من بعيد ولم يبلغ الشرطة عنك حتى رأيناك يوما قادما .

ـ آه .

ـ ساقتك قدماك أو ضميرك إلى ضحاياك .

ـ أى حلم مفزع !

ـ ما حدث بعد ذلك فأنت تذكره .

ـ أجل ، ولعبتم معى تمثيلية متقنة !

ـ آثرنا أن ننسى الماضى معك ، حتى ذكرنى ترددك بحالك قديما قبيل الهرب .

أغمض عينيه إعياء فقالت بحزم :

ـ علينا أن نصبر كما وعدناه .

* * *

١٠

فى شرفة الفيللا - فوق الجبل - وفى ظلام دامس جلس الشبح فوق الكرسى الهزاز ومثل الآخر بين يديه . وسأل الشبح الجالس :

- ماذا وراءك؟

- الأسرة تكافح فى صبر وعناء وعناد لا يعرف الهوادة .

- وما الجديد من أنباء الصراع؟

- العنف يتراكم كالجبال .

- وكيف حال صاحبنا؟

- عرف - فيما يعتقد - ذاته وتعلم من ذلك درسا لا ينسى .

- وذاته الأولى ألا يفكر فيها؟

- لا وقت لديه لذلك .

- أليس ثمة أمل فى يقظة غير متوقعة؟

- لا أستبعد حدوث معجزة إذا تحققت آماله فى البناء .

فتفكر الشبح الجالس مليا ثم قال :

- دعه وشأنه .

فقال الشبح الماثل بين يديه :

- سمعا وطاعة يا سيدى .

عنبر لُولُو

قام الكشك فى الوسط من طرف الحديقة الجنوبى . . كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين . وقف فى وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة ما زال يجرى فى صفحة وجهه بقية من حيوية . جعل ينظر فى ساعة يده ويمد بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلا شعاعا ذهبيا من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين . ولا حت الفتاة وهى تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسى . أحنت هامتها قليلا وهى تمرق من مدخل الكشك القصير ، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين . تصافحا . ثم قالت بصوت ناعم وبنبرة اعتذار :

- إنى خجلة !

فقال الكهل برقة :

- يسرنى أن ألقاك .

- لا يحق لى أن أنهب وقتك . .

- لا يعد ضائعا وقت نمنحه لعلاقة إنسانية .

- شكرا لطيبة قلبك .

أشار إلى الأريكة داعيا إياها للجلوس ، فجلست ثم جلس وقالت :

- لم تسعفنى الجرأة على طلب مقابلتك إلا لأنى فى مسيس الحاجة إلى رأى حكيم .

ـ كل إنسان عرضة لذلك، غير أن من يراك فى الإدارة لا يتصور أنك تحملين هما!

ـ دعك من المظاهر!

فهز رأسه موافقا فواصلت:

ـ وتساءلت طويلا إلى من يحسن بى أن ألجأ، حتى هدانى التفكير إليك.

ـ أستغفر الله.

وتريثت لحظات ثم قالت:

ـ إنك لا تعرفنى إلا كزميلة فى إدارة السكرتارية.

ـ نعم.

ـ فعلىَّ أن أقدم نفسى الحقيقية...

ـ أهلا بها.

ـ هى نفس مقضى عليها بالسجن المؤبد فى شقاء دائم..

ـ أرجو أن تتكشف بعد تبادل الرأى عن مغالاة عاطفية..

ـ بل هى حقيقة واقعية..

تجلى الاهتمام فى عينيه وهو يقول:

ـ إنى مصغ إليك..

فقالت وهى تتنهد:

ـ حسبى أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة...

فتجلى الاهتمام بصورة أوضح.

ـ إنى يتيمة الأبوين، لى إخوة ثلاثة صغار، نقيم فى بيت زوج المرحومة أمنا...

ـ وضع معقد . . .

ـ وأبعد ما يكون عن الراحة . .

ـ لا يمكن إنكار ذلك .

ـ وهو رجل عنيد متعجرف .

ـ زوج المرحومة؟

ـ من دون غيره . .

ـ أهو عجوز مثلى؟

ـ بل أكبر، وهو لا يحبنا!

ـ هل أنجب لكم إخوة؟

ـ كلا، إنه عقيم!

ـ ذلك مدعاة لحب الأطفال .

ـ ولكنه شاذ، وقد أفهمنى عقب وفاة والدتى بأننى المسئولة وحدى عن إخوتى . .

وساد الصمت مليا حتى استطردت قائلة :

ـ لعله بقراره لم يجاوز العقل!

ـ نعم، ولكنه جاوز الرحمة . .

ـ على أى حال أنا لا أطمع فى رحمته!

ـ مفهوم .

ـ وهو يمن علينا بالمأوى وببعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديونا مؤجلة . .

هز الكهل رأسه دون أن ينبس فقالت متنهدة :

ـ لعلك تخيلت الصورة التى أعيش فى إطارها، والحق أنى لا أملك النقود اللازمة لملابس فتاة موظفة . .

ـ وشابة فى عز شبابها!

ـ هكذا تمضى الأيام فى قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أى أمل فى غد أفضل!

فقال الكهل كالمحتج:

ـ لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين.

ـ ولو كانت بالحال التى ذكرت؟

ـ ولو كانت!

ثم تساءل وكأنه يناجى نفسه:

ـ منذا يقطع بما يخبئه الغد؟!

فرفعت منكبيها زهدا فى مناقشة فكرته وقالت وهى تتنهد:

ـ وإذا بى أشعر بزحف الزمن، من خلال حياة التقشف والمرارة أخذ الزمن يطاردنى..

ـ ولكنك مازلت فى مطلع الشباب.

ـ إنى فى الرابعة والعشرين من عمرى..

ـ عز الشباب!

ـ ولكنه فى مثل حالتى يعد مرحلة من الشيخوخة..

ـ لا داعى للمبالغة، إن وضعك ليس الوحيد من نوعه فى بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب!

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

ـ ولكنى لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية!

ـ الحقيقية؟!

ـ التى تتحدانى فى اليقظة والمنام!

ـ غير ما سبق ذكره؟

ـ ما حدثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن . .

فرفع الكهل حاجبيه متسائلا فقالت :

ـ أصبحت أشعر بشبابي لا كفترة من العمر تتسرب في ضياع . ولكن كقوة دافعة ، قوة قاهرة . كهبة مقدسة ، وحق إلهي ! . .

نظر الكهل في بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ ، فقالت بنشوة وحماس :

ـ كم تنازعني نفسي إلى أشياء وأشياء ، إلى كل شيء ، إلى الوجود كله !

ثم وهي تخفض عينيها وبنبرة معتصرة بالحسرة والحزن :

ـ أود أن أرقص وأغني وأمرح !

اختبأ الكهل في صمته وهو يطبق شفتيه متفكرا . ولما طال انتظارها قالت :

ـ لعلي دهمتك بصراحتي !

فأصر على الاختباء فقالت :

ـ لم تتوقع ذلك ، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكررة . ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسي ؟ !

فتمتم الرجل بحذر :

ـ صراحتك مشكورة !

ـ وكان علي أن أعلن ما في نفسي أو أجن ، ولكن كان عليَّ أيضا أن أختار الرجل المناسب ، وكنت تخطر على بالي دائما ، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة ، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا !

ـ أشكر لك إنسانيتك ولطفك .

ـ لا أنكر أن لى صديقتين حميمتين فى المصلحة ولكنى لم أفد من رأيهما ما يذكر!

ـ هل كاشفتهما بما كاشفتنى به؟

ـ كلا ولكنى سألتهما الرأى فى مناسبات جادة وخطيرة!

ـ بم نصحتاك؟

ـ بدت لى إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة!

ـ زيدينى إيضاحا.

ـ ليس الآن موضعه.

ـ والأخرى؟

ـ إنها غاية فى الغرابة، قالت لى إن مشكلتى عامة وإن بدت خاصة وإنها لا تحل بالحلول الفردية، وإن علينا أن نغير تفكيرنا من جذوره لنحقق تغييرا عاما وشاملا..

فابتسم قائلا:

ـ ليس رأيها بالجديد على مسمعى، ولكن كيف كانت استجابتك لها؟

ـ لم يستمر ما بينى وبينها طويلا بعد ذلك، فقد ألقى القبض عليها فجأة..

ـ عرفت المعنية بحديثك، أليست هى زميلتنا السابقة بالحسابات؟

ـ بلى، وهكذا لم أجد أحدا سواك..

فقال بلهجة أبوية:

ـ إنك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنك قد ترزقين بابن الحلال غدا أو بعد غد!.

ـ أبناء الحلال متوافرون..

ـ ألم يقع اختيارك على أحدهم؟

ـ نعم، لم يقع. إنهم موظفون شبان فى مستوى مادى لا يختلف عن مستواى، وقبول يد أحدهم يعنى التخلى عن إخوتى. ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها!

فقال الكهل بإصرار:

ـ عسى أن يجىء عريس غنى يقوم بكافة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتبك لإخوتك!

ـ هذا حلم وليس عريسا!

ـ الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

ـ أرفض أن أقيم ميزان حياتى على الأحلام. إنى أعيش فى جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسى تتحرق إلى الحياة والسعادة. وفى كلمة أود من أعماقى أن أرقص وأغنى وأمرح..

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

ـ هذه هى مشكلتى الحقيقية!

ولما وجدته مصرا على الصمت عادت تقول:

ـ يسعدنى أنى وجدت أخيرا الشجاعة لمصارحتك بها!

فجعل يغمغم بكلمات مبهمة فقالت باسمة:

ـ وطبيعى أن أنتظر منك شيئا غير الصمت..

فجمع عزمه وقال:

ـ إنى بطبعى وتاريخى أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة!

ـ ولكن طريقى مسدودة!

ـ ما تزال..

ـ أرجو أن تعتبرها كذلك إكراما لى، أنا لم ألجأ إليك إلا مطاردة بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق!

فقال بوضوح :

ـ لا رأى عندى دون مراعاة كاملة للكرامة !

ـ الكرامة ؟ !

ـ أعنى السلوك الخليق بفتاة محترمة .

فقالت بتحد :

ـ لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليدية !

ـ طيب ، هل تتوقعين لدى رأيا آخر ؟

ـ نعم !

ـ أن أسوغ لك السقوط ؟

ـ نعم !

فتساءل الكهل بذهول :

ـ ألم تجيئينى مدفوعة بما ذكرت عن تاريخى وحسن سمعتى ؟

ـ بلى !

ـ وتصورت بعد ذلك أن أبارك سقوطك ؟

ـ نعم !

فضحك الكهل على رغمه وقال :

ـ الحق أنى لا أفهمك . .

ـ ولكننى واضحة كضوء الشمس !

ـ الرقص والغناء والمرح ؟

ـ نعم !

ـ خبرينى عما تتوقعين منىْ ؟

ـ أن تصرح لى بأن النهل من متعة الحياة ليس سقوطا !

- ولكنه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد!
- وإذن فما على إلا أن أصبر حتى أذوى وأذبل وأموت؟
- بل حتى تفرج . .
- كلام لن يكلفك شيئا ولكنه سيكلفنى حياتى . .
فقال متحايلا للهروب من حدة الموقف :
- حدثينى عن رأى صديقتك الأخرى . أعنى التى لم تعتقل؟
- كان الحديث لمناسبة تقدم شاب لخطبتى فطالبتنى بأن أقبله دون تردد. وأما عن إخوتى فقد قالت إنه ليس من حق أحد أن يضحى بحياة آخر فى هذه الدنيا قصيرة الأجل!
فهز الكهل رأسه فى حيرة صامتة فقالت :
- ولكنى أرفض التضحية بإخوتى!
- يا لك من فتاة نبيلة!
- ولكن من حقى أن أحب الحياة، وأن أستمتع بهذا الحب . .
- إذا فقدنا الكرامة فإنه لا يطيب لنا شىء . .
- من الذى خلق الكرامة؟
- خلقتها السماء كما خلقتها الأرض . .
- ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوروبية؟
- إنها تنتمى إلى حياة أخرى فى أوروبا ولست أملك المعرفة الكافية للحكم عليها . .
- ولكنها أثبتت لنا أنه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانية باهرة
- قلت إنى لا أملك الحكم عليها . .
- هل تهرب من مواجهة الحقيقة؟

- بل أتكلم بما أعلم . .

- أخشى أن تعدنى مسئولية ثقيلة اعترضت طريقك الهادئ؟

- بل أود مساعدتك بكل قلبى . .

فقالت برجاء :

- إذن قدم لى نصيحة مبتكرة . .

- مبتكرة؟!!

- أجل ، لم أعد أومن بالماضى ، لقد ورثت تعاستى عن الماضى ، لذلك أكره كل ما يمت إليه بصلة ، هبنى نصيحة مبتكرة ولو هزئت فى النهاية بما سميته بالكرامة!

- ولكنى صارحتك بما أومن به .

- إنك رجل غير عادى ، لابد أن تنبع منك أفكار مبتكرة ، أفكار لا تستمد سدادها من قول سلف أو من عادة أثرت . .

- من حقى ومن واجبى ، أن أكون مخلصا لطبعى أبدا .

فقالت وهى تنظر فى عينيه بجرأة :

- أحيانا يخيل إلى أن شرا عصريا أفضل من خير بال !

- أى ثورة تنطوى عليها جوانحك الرقيقة الجميلة؟!

- الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعى تحت شعارات متهرئة ترددها ألسنة محتضرة . .

- هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر . .

- صدقنى فإن حياتنا وقف قديم متهدم تتحكم فيه وصايا الأموات . .

- كل ذلك لأنك تودين أن ترقصى وتغنى وتمرحى؟

- لأنى أود أن أعيش حياتى .

ـ وربما تودين غدا أن تقتلى الأنفس وتشعلى الحرائق وتهدمى الجدران؟

فضحكت قائلة فى حبور:

ـ أود حقا أن أقتل زوج أمى، وأن أحرق من يتطاول على رميى بالسقوط، وأن أهدم جدران الإدارة!

ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أَبوى وقال:

ـ لعله الحب؟

ـ هه؟

ـ لعله حب يائس هو الذى أضرم فيك نار الثورة!

ـ لا يوجد حب معيَّن الآن، أحببت مرات وخاب الحب مرات، أما الآن فأنا أحب الحب وحده!

ـ لا شك فى أن للحب عندك قصة!

هزت منكبيها استهانة وقالت:

ـ أنت تعرف حب المراهقة ومصيره المحتوم... ذاك واحد، وحلمت يوما بحب ممثل، وكان كلما تقدم لى خاطب أبدى قلبى استعدادا طيبا للحب لا يلبث أن يذهب بذهابه..

ـ لا قصة حب الآن؟

ـ أكبر قصة حب، حب الحب نفسه!

وتبادلا نظرة طويلة. ثم سألته:

ـ بم تنصحنى يا سيدى النبيل؟

فقال باسما:

ـ أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم..

ـ أتسخر منى يا سيدى؟!

ـ معاذ الله، بل إنك تغريننى بالتعلق بك!

ـ حقا؟

ـ ما أكثر أوجه الشبه بيننا!

ـ فيم؟

ـ فى التعاسة على الأقل!

فقالت باستطلاع:

ـ لقد سمعت عنك الكثير..

فلاحت فى عينيه نظرة حالمة وقال:

ـ كنت يوما ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثم وهو يبتسم:

ـ وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثم تمتم:

ـ ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل فى السراديب..

ثم واصل وهو يضحك ضحكة موجزة:

ـ ثم قضيت من حياتى خمسة وعشرين عاما فى السجن..

ـ أول ما لفتنى إليك حديث بعض الزملاء فى المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى!

ـ وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف من البعض ألحقت بالوظيفة بمرتب مبتدئ، وعما قليل سأترك الخدمة دون أن أستحق معاشا، وقد فاتنى الحب والزواج والأسرة، وإن امتد بى العمر فلا مفر من التشرد والجوع..

ـ يا للبطولة!

ـ لذلك قلت إن بيننا أوجه شبه..

ـ لكنك اليوم بطل!

- لا يذكرنى اليوم أحد!

ترامت إليهما فى الكشك ضحكات هامسة وهى تقترب. مرق إلى الداخل فتاة وشاب سرعان ما تبادلا عناقا حارا. أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشاب وأغمضت عينيها. قلبت رأسها، ولما فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين. ابتسمت بلا ارتياب يذكر ثم سحبت فتاها من يده وغادرا الكشك. ضحكت السمراء وابتسم الكهل. وسألته:

- لم اخترت هذه الحديقة مكانا للقائنا؟

- كنت أتردد عليها فى الزمان الأول...

- لا علم لك بما يدور فيها اليوم؟

- كلا، كنا نتخذها أحيانا مخبأ ننقض منه على أعدائنا..

فقامت برشاقة آخذة إياه من ذراعه، فمضت به إلى جدار الكشك. مدت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إياه إلى النظر. نظرا معا وهما شبه متلاصقين حتى فغر الكهل فاه. وهمست فى أذنه:

- انظر إلى الحديقة!

ثم وهى تكتم ضحكة:

- كم أنها مرصعة بالعشاق!

- كم أنها مرصعة بالعشاق!

- فوق ما يتصور العقل..

- العقل يستطيع أن يتصور كل شىء لو تخلت عنه القبضة الخانقة.

فقال فى انفعال ظاهر:

- انظرى إلى هذه الفاجرة!

- يا لها من سكرى بالحب!...

ـ أهذه حديقة عامة؟

ـ لا عيب فيها إلا أنها تشبه الجنة . . .

ـ إنها فى عمر الورد!

ـ الحديقة؟

ـ الفاجرة!

ـ يخيل إلى أنه لا زوج أم يرهبها ولا سجن يهددها!

رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث . تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك . وقفت كأنما تستعرض جسمها الرشيق .

دارت حول نفسها مرتين كأنما تشرع فى الرقص . سألها وهو لا يتمالك نفسه :

ـ لم وقع اختيارك على بالذات؟

ـ لأنك الرجل الذى قضى زهرة عمره فى السجن .

ـ كيف ظننت أنك واجدة رأيا جنونيا عند رجل مثلى؟!

ـ تخيلت أنه لن ينتشلنى من الموت إلا رجل كان الموت لعبته!

ـ يا له من مزاح!

ـ قلت لنفسى سأجد عنده رأيا جديرا ببطل!

فتردد قليلا ثم سألها :

ـ ألم تخشى أن أغازلك؟

ـ ليس ثمة ما أخشاه فى ذلك!

هز الكهل رأسه مغلوبا على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهى تسأله :

ـ أليس فى حياتك جانب لهو؟

فأجاب دون اكتراث :

ـ أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.

ـ تعيش وحدك؟

ـ نعم، لا أقارب لى فى القاهرة.

ـ ولا أصدقاء لك؟

ـ منهم من قتل فى الثورة، ومنهم من تبوأ يوما الوزارة فبعد ما بينى وبينه...

ـ والنساء، أليس فى حياتك نساء؟

ـ ولَّى موسمهن فى عمرى..

ففكرت قليلا وقالت:

ـ أود أن أعترف لك بسر!

فى تلك اللحظة ترامى إلى سمعيهما صوت رصاص ينطلق بقوة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت:

ـ ما هذا؟!

ـ رصاص من بندقية سريعة الطلقات..

ـ كيف؟!... لم؟...

ـ لا أدرى..

ـ غارة؟!

ـ ولكن صفارة الإنذار لم تنطلق، لعله تمرين.

وسكت الضرب. لبثا يرهفان السمع ولم يزايلهما القلق. تساءلت:

ـ هل يعود؟

ـ لا علم لى...

ـ هل تستأنف الحرب؟

ـ من يدرى؟!

ـ الكلام عن ذلك لا ينقطع .
ـ وهو ينتهى حيث يبدأ .
ـ أتفكر فى ذلك كثيرا؟
ـ إنه ظلنا ومصيرنا .
وفصل الصمت بينهما طويلا . حتى قال :
ـ إن الرصاص يحرك غرائز فى أعماقى ، لقد زلزل كيانى فى هذه اللحظة القصيرة .
ـ يؤسفنى أننى كدرت صفوك .
ـ لنعد إلى ما كنا فيه ، أكنت تتحدثين عن سر؟ !
فابتسمت قائلة :
ـ أجل . . . هناك سر . .
فرمقها بنظرة مستطلعة ، فقالت :
ـ ثمة رجل فى حياتى .
ـ حقا؟ !
ـ شاب غنى من طنطا !
ـ ها هو ذا الحلم يتحقق . .
ـ كلا ، إنه متزوج .
ـ ما مهنته؟
ـ تاجر .
ـ أتقبلين أن تكونى الزوجة الثانية؟
ـ لكنه يمقت فكرة تعدد الزوجات .
ـ هل سيطلق زوجته؟
ـ ويمقت فكرة الطلاق .

ـ وماذا يريد إذن؟

ـ إنه يحبنى!

ـ كذاب!

ـ أعتقد أنه صادق.

ـ هل . . هل . . ؟!

ـ تقابلنا فى مشرب شاى مرتين . . .

ـ ماذا يريد؟

ـ يريد أن أقابله مرة ثالثة . . .

ـ لا كرامة فى ذلك.

ـ رجعنا إلى الكرامة

ـ واضح أنه يريد العبث بك.

ـ أو أن أعبث به!

ـ كونى بريئة بقدر ما أنت صغيرة . .

ـ وحدثنى عرضا عن شقة يملكها فى الهرم!

ـ الداعر!

ـ لم أقطع برأى بعد.

فهتفت بحدة:

ـ الرقص والغناء والمرح!

ـ لا أحب لك أن تغضب . . .

ومالت نحوه فلثمت جبينه. وجعل ينظر إليها باهتمام وتوقد. سألته برجاء:

ـ ألا تريد أن تمن على برأى؟

ـ عليك أن تصبرى حتى يجىء الفرج ، كما أن على أن أصبر حتى يجىء الموت !

فقامت وهى تقول :

ـ شكرا ، وإذن فيجب أن أذهب . . .

هتف باستنكار :

ـ تذهبين؟! . .

ـ لم أجئ لأقيم هنا .

ـ أنت ذاهبة إلى الشاب الغنى من طنطا .

ـ كلا ، ليس موعده اليوم . . .

ـ لا يمكن أن تذهبى . . .

ـ آن لى أن أذهب . .

قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثم قال بعصبية :

ـ الحب لا يتوقف لحظة واحدة . .

ـ متع بصرك . . .

تحول إليها وهو يقول بانفعال :

ـ كأنك ابنتى !

ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول :

ـ لا تذهبى إلى مشرب الشاى .

ـ ليس اليوم . . .

ـ إنه يريد عشيقة !

ـ لم يصرح بذلك .

ـ أنت ساذجة؟ . . أنت ماكرة؟ . . ما أنت؟

ـ أنا مصممة .

ـ أنت جميلة ، أنت فاتنة ، اصبرى . .

ـ يجب أن أذهب .

ـ إنه يرفض أن يطلق ، ويرفض أن يتـزوج زوجـة ثانيـة ، لماذا؟ لعل زوجته غنية ، لعلها رأسماله الحقيقى ، وغير بعيد أن تكون أكبر منه سنا ، لذلك جهز شقة للعبث ، يجىء إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة . هذه هى الحقيقة .

ـ أشكرك ، ولكن آن لى أن أذهب .

قبض على يدها ، ثم على ساعدها ، وقال وهو يزداد انفعالا :

ـ لن تذهبى . . .

ابتسمت قائلة :

ـ لقد تأثرت لحالى أكثر مما يجوز . .

ـ لا حدود لما يجوز فى ذلك .

ـ شد ما أزعجتك !

ـ أكثر من سبب يشد أحدنا إلى الآخر .

ـ ولكن الوقت يسرقنا وزوج أمى رجل شرس . .

ـ فلنسحق رأسه ، ولكن لا تذهبى إلى الشاب الغنى من طنطا .

ـ إنى راجعة إلى البيت .

ففرقع بأصابعه وقال :

ـ جاءتنى فكرة طيبة .

ـ فكرة؟

ـ إنك مشغولة بالحياة ، ولا خوف عليك من كهل مثلى ، فلنذهب سويا إلى عنبر لولو !

ـ عنبر لولو؟ !

ـ حديقة فى صحراء سقارة، فى المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب : افعل ما تشاء .

فاتسعت عيناها دهشة وقالت :

ـ أنت تدعونى إلى ذلك؟!

ـ مع آمن رفيق!

ـ لا أصدق .

ـ لا يعز شيء على التصديق .

ـ ولكن . . ولكن ليس الوقت مناسبا .

ـ كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو .

ـ لم أسمع بها من قبل .

ـ إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع فى عنبر لولو .

ـ إنك تتكلم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعان جديدة .

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعيا إياها إلى النظر وقال محموما :

ـ انظرى، جميع هؤلاء حمقى لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو .

ـ تلك الحدائق النائية عرضة للخطر!

ـ إنها ترقد فى حضن الأمان وآى ذلك أنه لا يوجد بها شرطى واحد!

ـ وماذا نفعل هناك؟

ـ كما تهوين، لا أحد يرى الآخر فى عنبر لولو .

ـ انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة!

ـ إنها فاجرة لأنها تلهو بعيدا عن عنبر لولو .

ـ إنك تخيفنى!

ـ لا ظل للخوف فى عنبر لولو.

تراجعت عن الجدار فلحق بها فى نشاط غير معهود وهو يشد على يدها. وتساءل:

ـ ألم تجيئى لتسمعى نصيحة من كهل؟

ـ أمقت النصائح!

ـ اذهبى معى إلى عنبر لولو.

ـ رباه.. إنى أتراجع، لعل حديثك الحكيم أثر فى أكثر مما توقعت!

ـ حديث عنبر لولو!

ـ حديث الصبر والكرامة!

ـ إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.

ـ ولكنك تؤمن بها؟

ـ إن ربع قرن فى السجن خليق بأن يخل الميزان.

ـ إنك تخيفنى.

ـ كلا، ولكنها حيلة نسائية بالية!

ـ اهدأ. فلنجلس، أود أن أعترف بسر جديد!

ـ اعتراف آخر؟!

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاها تدافعت أقدام مهرولة تند بين وقعها ضحكات شابة متوثبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنهما لم يلقيا إلى ذلك بالا. مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للانقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التى يستقر عليها الكهل وصاحبته، وتخطت الرجل فاختفى لحظة بين ساقيها، ثم قفزت إلى الباب. ومنه

إلى الحديقة والشاب فى أثرها . سوّى الكهل هندامه وتمتم كأنما يناجى نفسه :

ـ ما أجمل أن يذهبا إلى عنبر لولو .

ثم قال لفتاته بضيق :

ـ نحن نضيع وقتا ثمينا لا يعوض !

فقالت تذكره :

ـ ولكن ثمة اعترافًا جديدًا !

ـ لا قيمة الآن لأى اعتراف !

ـ أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغنى من طنطا مختلقة من جذورها ولا أساس لها فى الواقع !

ـ حقا ؟ !

ـ بالصدق أعترف لك .

ـ ذاك يعقد الأمور ولا يبسطها !

ـ وعلىّ أن أذهب الآن .

ـ كلا ، لن تذهبى .

ـ لا شىء يدعونا للبقاء .

ـ بل علينا أن نفهم الأسباب التى دعتك إلى اختراع الحكاية .

ـ لا أهمية لذلك ألبتة .

ـ كلام غير علمى ، فالحلم له أسبابه كالواقع سواء بسواء .

ـ أكرر ألا أهمية لذلك .

فهز رأسه مفكرا وقال باهتمام :

ـ دعينى أفكر .

ومسح على جبينه واستطرد :

ـ شاب . . تاجر . . غنى . . من طنطا . . شقة خاصة فى الهرم .

ـ كدت أنسى تلك التفاصيل .

ـ لا يمكن أن تُنْسَى .

ـ أنت ظريف ولكنك عنيد .

ـ أصغى إلى ، شاب . . تخيلته شابا ، الشباب رمز الجنون بحب الحياة ، وأنت تهيمين بحب الحياة لحد الجنون .

ـ لكنى تغيرت .

ـ كذب ، لم يمر وقت يسمح بالتغيير .

ـ يخيل إلىّ أنى عاشرتك فى هذا الكشك عمرا .

ـ أصغى إلىّ يا عزيزتى . . . تاجر . . ما معنى تاجر؟ إنه نقيض الموظف ، الموظف رمز الروتين ، التاجر رمز الحركة ، الموظف ظل الأخلاق التقليدية ، التاجر ظل الانطلاق واللا أخلاقية .

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتراني حلمت بقرصان؟

ـ وأكثر يا عزيزتى ، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمن إبليس بنفسه ، إنك تنبذين آدم مخلوق الخَطيئة والاستغفار ، وتعشقين إبليس مخلوق الإِبداع والكبرياء ، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب .

ـ سامحك الله . . أنت خفيف الروح .

ـ وما معنى غنى؟ الغنى هو الذى يملك المال والقوة ، ولكننا لم نعد فى عصر الأغنياء ، أى غنى اليوم إنما هو كاللص الذى لم يُهْتَدَ إلى أثره بعد ، ستُطْبق عليه يد العدالة فى المساء أو عند منتصف الليل ، فالحلم يريد شابا غنيا ، لفترة محددة ، إنه يخشى المعاشرة الطويلة ، يخشى أن يتكشف مع الزمن عن شخص حقير شرس

مثل زوج أمك، فأنت ترغبين فيه وتكرهين فى الوقت نفسه فكرة دوامه، سوء ظن مكتسب من ماض تعيس. . .

- أتقرأ الفنجان أيضا؟

- من طنطا! . . . ماذا يقول الحلم ؟ طنطا هى مثوى السيد البدوى، صاحب الكرامات والمعجزات، الذى كان يجىء بالأسرى من الأعداء. . فهمت يا عزيزتى؟ !

- فهمت يا سيدنا الشيخ.

- وشقة الهرم؟ . . الشقة مفهومة ولكن لماذا فى الهرم؟ . الهرم فى ظاهره قبر ولكنه فى حقيقته يشكل تحديا للزمن. . . للموت.

- تفسير مسل وجميل، ولكن يجب أن نفكر فى الذهاب.

- ابصقى هذه النية من فيك وهلمى إلى عنبر لولو.

- بل إلى البيت. .

- ماذا فى البيت مما يغريك بالعودة إليه؟

- هو بيتى على أى حال.

- سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.

رمقته بنظرة ارتياب وسألته:

- ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو؟

- فيه خلوة للعجزة، كل شىء فى عنبر لولو.

- ترى. . ترى أأنت جدير بالسمعة الطيبة التى تتمتع بها؟

- أنسيت رأيك فى الوقت القديم ووصايا الأموات؟

- لكننى تعلمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا !

- لا تسخرى من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان.

- اغفر لى فإنى لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعا من عمرى!

ـ ولكنه فى حالتك يعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة !

وقامت متجهمة فقام فى أثرها بحال توحى بالاعتذار، وقال :

ـ لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه!

فقالت بنبرة ساخرة :

ـ شيدتَ قصرا ولكن على الرمال!

ـ حقا؟

ـ الشاب الغنى من طنطا حقيقة من صميم الواقع!

ـ بل خيال فى خيال!

ـ حقيقة من صميم الواقع .

فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار . وتوثب ليقذفها بسيل من الكلمات التى انصهر بها شدقاه، ولكن شخصا غريبا اقتحم الكشك على غير توقع . اقتحمه وكأنما ألقى به إليه . مشعث الشعر، أغبر الوجه يتصبب عرقا . رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه . ضرب الأرض بقدميه بشدة ليزيل عن حذائه ما يطويه من طين . بادلهما النظر صامتا دون أن ينبس . مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها فى إعياء . جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر . حل بالكشك صمت كالشلل . لكن الفتاة كانت أول من خرج منه . خلصت يدها من قبضة الكهل وقالت :

ـ أستودعك الله، إنى ذاهبة .

فقال الكهل برجاء :

ـ انتظرى، يحسن بك ألا تسيرى وحدك فى الطرقات الخالية فى هذه الساعة من الأصيل!

وإذا بالشباب الغريب يقول :

ـ ليست الطرقات بالخالية!

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشاب:

ـ جميع الطرقات مطوقة برجال الشرطة!

فتحول غيظ الكهل إلى دهشة وسأله:

ـ لم؟

فسأله الشاب بدوره:

ـ ألم تسمعوا طلقات الرصاص؟

ـ بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريبا عسكريا.

ـ لم يكن تدريبا عسكريا.

فسألته الفتاة:

ـ أكان غارة جوية؟

ـ لم يكن غارة جوية.

فسأله الكهل:

ـ هل بلغتك عنه أنباء صادقة؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلا:

ـ صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة الطلقات.

ـ ما هويته؟

ـ لا يدرى أحد.

ـ وما الهدف الذى أطلق عليه الرصاص؟

ـ أطلقه على الجهات كافة، على جميع الناس!

ـ يا للخبر! وكم عدد الضحايا؟

ـ لم يصب أحد!

ـ غير معقول .

ـ يبدو أنه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحدا .

ـ حادث غامض .

ـ إنه لكذلك .

ـ هيهات أن يثبت عدم الشروع فى القتل .

ـ ذاك واضح ، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق!

فقال الكهل باستياء :

ـ ليس خلو الصفحة من السوابق بالشهادة الطيبة دائما . ولا العكس بالصحيح .

ـ قول لا يخلو من حكمة .

ـ أهنئك على حسن إدراكك .

ـ شكرا .

ـ لكن لنعد إلى مطلق الرصاص ، لعله مجنون؟

ـ كلا . .

ـ إنك تتحدث عنه بيقين !

ـ بل أردد ما تناقله الناس فى الطرق .

ـ ولكن لم يطلق النار فى جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد؟

ـ ذاك بعض السر الذى يسعى وراءه رجال الشرطة .

فقالت الفتاة :

ـ لعله مجنون بالشهرة .

ـ لا يبدو كذلك .

فعادت تقول :

ـ لعله كان فى حاجة ملحة إلى الترفيه؟ !

فابتسم الشاب قائلا :

- لا أظن الأمر كذلك .

وسأله الكهل :

- ماذا يقول الناس عنه أيضا؟

- يقال إنه كان ضمن وفد دعى إلى زيارة الجبهة ومعسكرات اللاجئين .

- حقا! . . لعل أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل .

- لكنه لم يفقد توازنه قط وإلاّ لقتل الناس بالعشرات!

- أطلق النار وهو فى كامل وعيه؟

- وكامل عقله!

- يا له من حادث غامض!

وقالت الفتاة :

- كم أود أن أراه .

فقال الكهل :

- سترينه فى جرائد الغد ، كذلك تجرى الأمور منذ قديم!

ثم التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له نفسه :

- أنا أيضا ولعت يوما بإطلاق النار!

ثم بنبرة اعتزاز :

- ولكن الرصاص انصب على الأعداء!

فقال الشاب بامتعاض :

- يقال إن صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن يختفى «ليستقر الرصاص فى قلب العدو الأكبر!» .

فقال الكهل فى حيرة :

ـ حتى القتل أصبح غامضا على الرغم من أنه أوضح فعل فى الوجود!

ـ ليس ثمة غموض ألبتة . .

فتساءل الكهل بغيظ :

ـ أكان العدو الأكبر يسير فوق رءوس المارة؟

ـ أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم!

فقالت الفتاة بانفعال :

ـ واضح أو غامض ، لا يهم! كم أنه جميل أن يطوف إنسان بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثم يصعد إلى برج القاهرة ليطلق النار فى جميع الجهات!

فسألها الكهل :

ـ هل وضح لك ما غمض على؟

ـ نعم .

ـ ولكن كيف؟

ـ إنى أفهم بطريقتى الخاصة!

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجة فى الخارج ، ثم تبين على وجه اليقين أن ثمة ضجة تجتاح الحديقة .

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشاق بتجمعون فى الممشى وقد تولاهم الوجوم والارتباك . ثم رأيا رجال الشرطة وهم يحتلون الأركان . قالت الفتاة بانفعال :

ـ أصبحنا فى قلب الحدث . .

فقال الكهل :

ـ وقد يقع صدام دام .

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له :

ـ واضح أن رجال الشرطة يعتقدون أن صاحبك المجهول فى الحديقة معنا!

فقال الشاب بهدوء:

ـ وهو فرض محتمل!

فقال الكهل:

ـ ولم يعد ثمة مجال للهرب..

فقال الشاب:

ـ إن من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب إلى ما لا نهاية..

فقال الكهل وهو يحدجه بمودة:

ـ وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه..

ـ أتظن ذلك؟

وابتسم. ثم قام بهدوء. حياهما بإحناءة من رأسه قائلا:

ـ إلى اللقاء..

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يرددان وراءه..

ـ إلى اللقاء!

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث فى الخارج. ولبثا وقتا غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجى نفسه:

ـ فاتنى أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيرا وحرجا!

فقالت الفتاة:

ـ وفاتنى أن أدعوه إلى شىء من اللهو!

فقال لها معاتبا :

- ما زلت قادرة على المزاح!

- أنسيت هيامى بالرقص والغناء والمرح؟

فقال بامتعاض :

- آن لك أن تذهبى إلى شابك الغنى من طنطا!

فضحكت قائلة :

- دعنى أعترف لك بأنه حلم لا أساس له فى الواقع!

فهتف بغضب :

- لقد أرهقتنى اعترافاتك المتضاربة!

فقالت بتسليم :

- هلم بنا إلى عنبر لولو!

ونهضت قائمة . لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى وهو يحنى رأسه :

- دعينى أعترف لك بأن عنبر لولو لم يوجد بعد .

فاتسعت عيناها دهشة وتمتمت :

- ماذا قلت؟!

- كان مجرد مشروع!

- مشروع؟!

- أجل .

- ماذا تملك لتنفيذه؟

- رسمنا له خطة عظيمة فى غيابات السجن!

- السجن؟!

ـ كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو. . .

ـ وماذا عن تمويله؟

ـ فكرنا في ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما، وهما السرقة والقتل!

فضحكت متسائلة:

ـ وماذا أخركم عن التنفيذ مذ تم الإفراج عنكم؟

ـ الخيانة!

ـ الخيانة؟!

ـ إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج في عام واحد! هكذا تعطل مشروع عنبر لولو!

ـ يا للخسارة!. .

ـ العين بصيرة واليد قصيرة!

وفرق بينهما صمت واجم ثقيل. حتى قال الكهل:

ـ آن لنا أن نذهب، ولكن لا يجوز أن نفترق!

ـ حقا؟!

ـ ألا ترحبين بذلك؟

ـ من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح!. .

ـ ولكنى صاحب مشروع قيم!

ـ عنبر لولو؟!

ـ أجل. .

ـ لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردى؟

ـ إذا اتفقنا أمكن أن نصنع شيئا ذا بال. .

ـ وماذا فى وسعى أنا؟

ـ أصغى إلى، نحن نملك مواهب لا تقدر بثمن . .

ـ ما أريد إلا أن أرقص وأغنى وأمرح .

ـ لن أطالبك بأكثر من ذلك . .

ـ ماذا تعنى؟

ـ عنبر لولو، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح؟!

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت :

ـ وأنت؟

فقال بفخار :

ـ أنا مولع بالقتل من قديم الزمان . .

قام فقامت . أعطاها ذراعه فتأبطتها . . مضيا نحو باب الكشك وهو يقول :

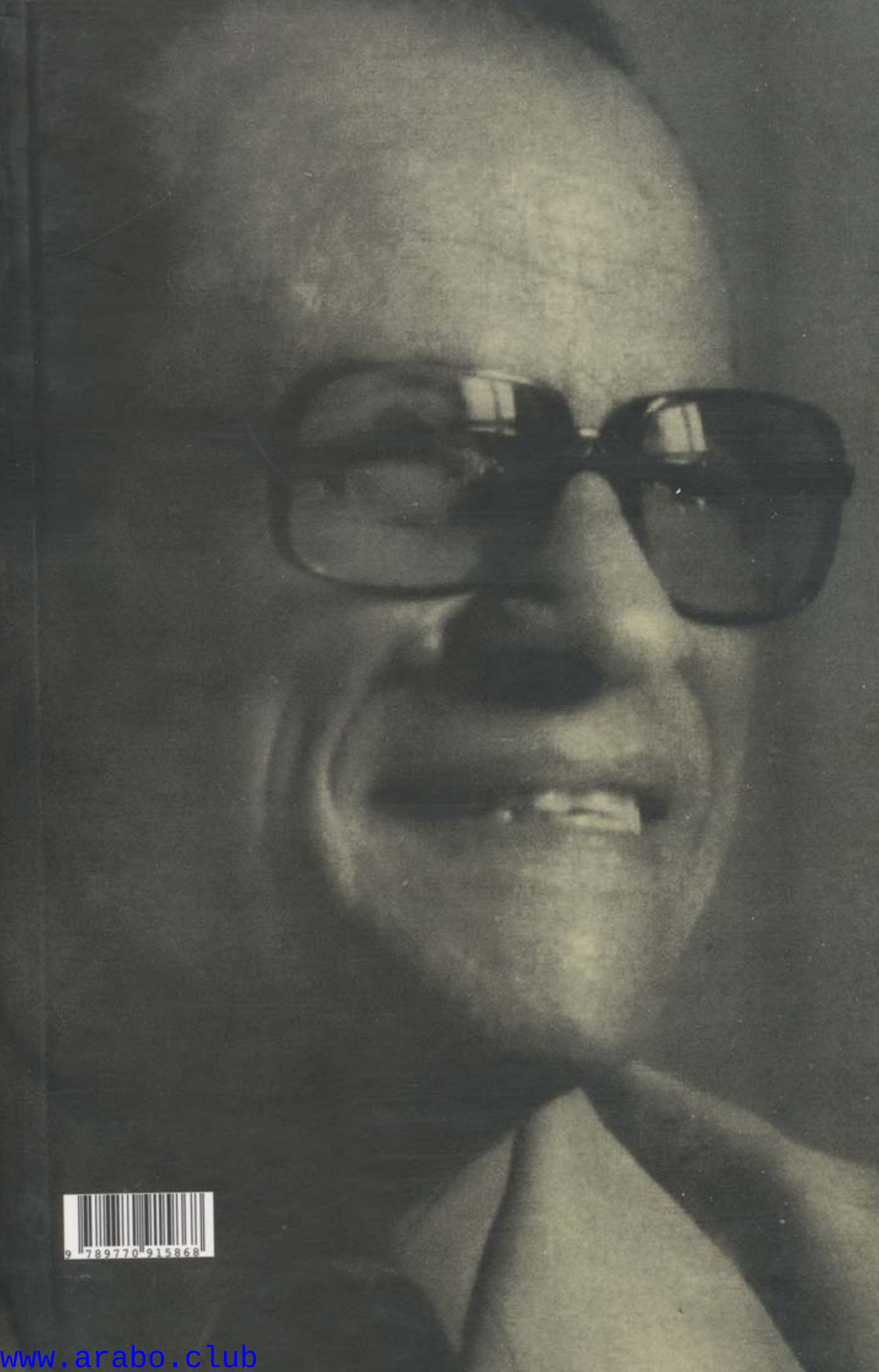
ـ سأطلق الرصاص فى جميع الجهات وسنرقص، ونغنى ونمرح . .

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ	ميـرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحـت المظـلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شـهر العســل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المـــرايا	روايـــة	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	روايـــة	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجـــريمـة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكـــرنـك	روايـــة	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	روايـــة	١٩٧٥
٣٢ ـ	قـلب الليــل	روايـــة	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	روايـــة	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحـرافيـش	روايـــة	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصـر الحـب	روايـــة	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفـراح القبـة	روايـــة	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالي ألف ليلة	روايـــة	١٩٨٢

٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيــم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ صبـــاح الـــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشـــــــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القـــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


9 789770 915868